كيف تعلمت الكتابة

عنوان الكتاب : كيف تعلمت الكتابة
ومقالات أخرى

المؤلف : مكسيم غوركي

ترجمة وتقديم : مالك صقور

اختيار : أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/84/ أيار

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

مكسيم غوركي

كيف تعلمت الكتابة

ومقالات أخرى

ترجمة وتقديم: مالك صقور
اختيار : أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (84)

مكسيم غوركي
1868 ـ 1936

مالك صقور

إن أحداً لم يكن بوسعه، أن يعرف أو يتنبأ لذاك الفتى الأشعث الطويل، النحيف، ذي الأكتاف العريضة، أصفر السحنة، الصبي المتشرد، الذي يرتدي معطفاً فضفاضاً، أنه سيكون ذائع الصيت، وأن اسمه سينطلق خارج حدود وطنه إلى أنحاء العالم، كواحد من أعظم الكتاب، الذين وقفوا حياتهم لخدمة الإنسانية، ومن أجل تحريرها، من ربقة الظلم والاضطهاد، والتعسف، ومن أجل الحرية.. إنه الكسي مكسيموفيتش بيشكوف

***

ولـد ألكـسي مكـسيموفيتش بيـشكوف في 28 آذار عـام 1868 في مدينـة نـيجني نـوف غـورد (مدينـة غـوركي حالياً). وبعد أربعة أعوام، مات أبوه بوباء الكوليرا. وقبل أن يـتم العاشـرة، ماتـت أمـه (فارفـارا فاسـيلفنا كاشـيرنا). وهكـذا، قـدر للفتـى ألكـسي أن يعـيش اليـتم، ويقـذف بـه بعيـداً علـى دروب التـشرد والجـوع. فعـاش في كنـف جـده (فاسيلي كاشيرين)، والذي وصفه غوركي، فيما بعد، أنه كان قاسياً جداً، غليظ الطباع. وما أن أتم العاشرة، حتى قال له جده: "**والآن، يا ألكسي، إنك، لست ميدالية على صدري. قم واذهب إلى الناس**". ومن تلك اللحظة، انطلق الـصبي، وانخـرط في صـفوف النـاس ليعاشـر أصـنافهم، وليعـاين أفعـالهم، وليختبر طبقـاتهم، وليـذوق مبكـراً جـداً، مـرارة العـيش وشـظفه، وليكتـشف بنفـسه رويـداً رويـداً، قساوة الحيـاة، وشـناعتها، وليعـاني من ظلم المتسلطين علـى رقـاب النـاس. هـذه الحيـاة الـشنيعة القاسـية، أيقظـت في روح الـصبي المراهـق أليوشـا بيـشكوف الكـره الـشديد لكـل مظـالم الأرض ومفاسـدها، ودفعته للتمـرد، ولـيردد طـويلاً:

"جئت إلى هذا العالم كي لا أوافق". وليحب فقراء القاع، والالتزام بهم والدفاع عنهم.

***

بدأ غوركي حياته العملية، أجيراً صغيراً، في مخزن لبيع الأحذية، ومن ثم انتقل ليعمل غسّال صحون على باخرة. وكان معلمه على الباخرة، الطبّاخ ميخائيل اكيموفيتش سموري، الذي أيقظ فيه حب الكتب والأدب. فالطباخ هذا، كان بحوزته صندوق مليء بالكتب. يحمله أنّى ذهب، وكان ذلك الصندوق، على حد تعبير غوركي: "أعجب مكتبة في العالم". ضمن هذا الصندوق مختارات جيدة، وجميلة من الكتب، التي اختارها صاحبها بدقة.. هذه الكتب، فتحت أمام الصبي آفاقاً واسعة، وإن كانت جدته في صغره عرّفته بالشعر الشعبي، فإن (سموري) جعله يحب الكتب طوال حياته. ومن خلال الكتب ــ كما قال غوركي: "عرفت الطمأنينة الروحية، وجعلتني أثق بنفسي، وعرفت، أني لست الوحيد على هذه الأرض، وأني لن

أضيع". بعدها، انتقل ليعمل صانعاً في ورشة أيقونات، ومن ثم عاملاً في سوق المعرض في مدينته، كما وعمل ممثلاً ثانوياً في المسرح، وبائع شراب (الكفاس). لينتقل بعدها إلى عمل آخر تماماً، فيعمل خبازاً، وعتالاً، وبستانياً، كما وعمل قليلاً في جوقة غناء. وأخيراً، انصرف إلى جمع الخرق والأسمال مع المتشردين، وصار يجوب معهم أنحاء روسيا في سني المجاعة الكبيرة، التي حاقت بروسيا. في تلك الأثناء، هبّ كل من الكاتب العظيم ليف تولستوي، وتشيخوف، وكورلينكو، لإغاثة المحتاجين والجوعى، الذين يموتون في الطرقات. يومها لم يكن غوركي، قد أصبح كاتباً، كان مجرد جائع، متشرد على الطرقات. لقد أصيب الصبي بنوبة يأس قاتلة، فحاول الانتحار، ليضع حداً لهذه الحياة. لكن الرصاصة لم تصب القلب، بل أصابت الرئة، وقُدّر له أن يعيش. هذه المحاولة سببت له العار طويلاً، والخجل الشديد كلما تذكرها.

***

في عام 1884 رحل ألكسي بيشكوف إلى قازان، وهناك حاول الانتساب إلى جامعتها، لكنه لم يوفق فظروف الحياة حولته إلى مواجهة دروس أخرى، كانت أصعب، وأقسى مما تصور هو ذاته. ومن جديد شرع بالتجوال في أرجاء روسيا إلى أن حط رحاله، أخيراً، في مدينة تيبليسي ـ في القفقاس. وهناك، كتب قصته الأولى: **"ماكار تشودرا"**. في حينها، لم يجرؤ على التوقيع باسمه الصريح. فوقع باسم مستعار: **"غوركي"** ويعني **"المر"**. ومن حينها، اختفى وإلى الأبد اسم أليوشا بيشكوف، واشتهر، حتى يومنا باسم مكسيم غوركي. وهكذا، بدأ غوركي حياته الإبداعية، شاقاً طريقه بصعوبة. بدأ رومانتيكياً، ليتحول إلى الرومانتيكية الثورية، ومن ثم إلى الواقعية.. فالواقعية الاشتراكية.

في تلك المرحلة من حياته، كتب غوركي عن حياة الناس الذين التقاهم في الطرقات، وتشرد معهم، وعاش بينهم في الملاجئ، كما وكتب الحكايات والأغنيات.

بعد قصته **"ماكار تشودرا"**، كتب غوركي: **"الجد أرخيب ولوفكا"**. و**"أغنية عن الصقر"** و**"تشلكاش"**

و"كونوفالوف" و"ستة وعشرون رجلاً وفتاة" و"العجوز إيزرغيل". وقصصاً أخرى كثيرة. عبّر من خلالها عن الحرية، وسعادة الشعب المرتقبة. ففي "أغنية عن الصقر" يقارن بين الصقر والحية. إذ يبيّن حكمة الصقر وبطولته، واستعداده للتضحية بنفسه من أجل الجمال، والحرية، والعطاء. في حين صور أنانية الحية، وحقدها، وسمها، وضيق أفقها. فالقارئ يفهم من هذه المقارنة، أن قصته تلك، أو بالأحرى، حكايته، غنيّة بالرمز الإنساني الجميل، الذي يتضمن "حكمة الحياة". وفي تلك المرحلة، التي كتب فيها قصته، لم يكن غوركي يرى آفاق الثورة المقبلة. لهذا، يموت الصقر في نهاية القصة، وعندما تسأله الحية: "هل أنت تحتضر؟" ـ نعم، أحتضر، وأخذ يتنفس بعمق، وتابع: **لقد عشت حياة كريمة.. وأنا أعرف السعادة، ولقد قاتلت بشجاعة. ورأيت السماء. وأنت، لن تريها عن قرب. آه، أيتها المسكينة"**.

في عام 1894 كتب قصته "العجوز ايزرغيل" ونشرها، في عام 1895 وهي أسطورة. مضمون هذه الأسطورة، تدين الفردية، وتنشد البطولة. من أجل الحرية، وسعادة الشعب.

في هذه الحكاية ـ الأسطورة، يبرز غوركي نموذجين: نموذج الإنسان الأناني، المتغطرس، المتكبر، المتمثل بالشاب (لارا)، ونموذج الإنسان الرائع المضحي بنفسه في سبيل الشعب ألا وهو (دانكو).

لقد ارتكب (لارا) جريمة، إذ قتل فتاة، لأنها لم تقنع به، فأراد وجهاء القوم الانتقام منه، وراحوا يفكرون بنوع العقوبة التي تناسب هذا المتعجرف المتكبر، ، فكروا أن يقتلوه، إلا أن القتل عقوبة سهلة. أرادوا أن يربطوه بذيل الفرس ويجروه، ثم عدلوا، ثم قرروا، أن يطلقوا سراحه. وليعش منبوذاً. وحرّموا على الجميع أن يتحدثوا إليه أو يختلط هو معهم. وعندما لم يعد بوسعه أن يعيش هكذا وحيداً، أراد أن ينتحر ليتخلص من هذه الحياة، فلم يستطع: **(ليس له حياة، والموت لا يأتيه)** وكانت تلك هي أقسى عقوبة نزلت به. أما دانكو، فإننا نرى العكس تماماً. إذ قدم غوركي النموذج الآخر المقابل. نموذج دانكو ـ الشاب الجميل، الشجاع، الذي سلمه قومه زمام الأمور فيقودهم إلى الإمام وعندما تاه القوم وسط الغابة في ليل لا نهاية له، وسط مستنقعات هائلة تحوّلت أغصان الأشجار فيها إلى

أفاعي، وما عاد لهم مخرج. حمّلوه مسؤولية فشله، ووصفوه بالتافه، وقرّروا قتله. لكن دانكو، كان يحبهم، ويريد لهم الخير، فما كان منه، إلا أن شق صدره، وامتشق قلبه، ورفعه عالياً. وسطع قلب دانكو، سطوع الشمس، وأضاء الغابة كلها بهذا المشعل، وصرخ بهم: لنتابع المسيرة، حاملاً قلبه ـ المشعل مضيئاً به الطريق للناس... لقد أجاب غوركي في هذه الأسطورة، عن السؤال التالي: أين تكمن سعادة الإنسان؟ وكان الجواب، إن السعادة في التضحية وخدمة الشعب، والعيش بين الناس،وليس في الغطرسة، والتكبر، والابتعاد عن الناس.

***

في عام 1899 صدرت رواية (فوما غورديف)، وقد أثارت اهتماماً واسعاً، مثلما أثارت رواية ليف تولستوي (البعث). حيث صوّر روسيا القيصرية وعالم الرأسمال فيها فاضحاً فيها البرجوزاية، وسلطة القرش.

وفي عام 1901 صدرت رواية "الأصدقاء الثلاثة" وفي هذه الرواية. وفي (فوما غورديف) يكون غوركي قد انتقل من

الرومانتيكية الثورية، إلى الواقعية، متابعاً فيها ما بدأه بالأولى، وهو فضح الواقع الشنيع لروسيا القيصرية. أبطال الرواية الثلاثة: (ياكوف فيليمونوف) ــ إنسان هادئ، مسحوق، ابن صاحب مطعم. و(باشكا غراتشيف) محكوم عليه بالأشغال الشاقة. وثالثهما (إيليا ليونيف) القادم من القرية. هؤلاء الثلاثة، يحلمون بالانعتاق من الحياة الشنيعة، القذرة، والانطلاق إلى حياة نظيفة جميلة. وتنضم إليهم (ماشا) ابنة الإسكافي. هذه الفتاة، التي قدر لها أن تعيش حياة عابثة على الرغم من صغر سنها. وهكذا تمر الأيام، وتختلف مشارب الأصدقاء الثلاثة. فياكوف الطيب البسيط، يبقى أبداً خائفاً من مظالم الحياة ومن المستقبل المجهول. وهو يحلم بالدير، فيتحول إلى المطعم، يقف خلف البوفيه في جو خانق من السُّكر والعربدة، في مطعم أبيه. أما إيليا ليونيف، الحالم بالحياة "النظيفة" يشق دربه إلى "العلاء" و"النظافة" لكنه ممزق بين رغبتين متناقضتين: التعطش إلى المال والغنى، وحلمه بالعدالة. وهذا مستحيل. كمن يرغب في جمع الماء والنار. إلا أن الدرب الذي سلكه يؤدي به إلى الجريمة. فقتل المرابي العجوز، ولم يستطع أن

يتخلص من عذاب الضمير. وهكذا، يكتشف بنفسه أن الحياة، في المجتمع الراقي، يسيطر عليها الكذب، والنفاق، والرياء. وأن الحياة التي ينشدها، الحياة الشريفة النظيفة، غير موجودة. ويبقى (باشكا غراتشيف) الوحيد من بينهم الذي التحق بالمثقفين، الثوريين. ويبقى منسجماً مع نفسه. والجدير بالذكر، أن ملامح باشكا غراتشيف، تشبه ملامح الكاتب نفسه. والذي طاف أرجاء روسيا بحثاً عن عمل يعيش منه. ولم يسلك درب رفيقه. بل اهتم بالثقافة، واجتذبته حلقات الثوريين. وكانت تلك المرحلة التي بشرت بظهور بافل فلاسوف ـ بطل ـ رواية (الأم). الرواية التي بشرت بالمرحلة الجديدة، ليس في أدب غوركي، بل وفي روسيا، وفي كثير من أنحاء العالم.

***

في المرحلة الجديدة، في مطلع القرن العشرين، ومع اشتداد الصراع الطبقي، في روسيا القيصرية، ونهوض الطبقة العاملة، وبروز البروليتاريا بقوة على المسرح السياسي، وفي فترة التحضير لثورة 1905 أصدر غوركي روايته الشهيرة "الأم". والتي لعبت دوراً هاماً. في توعية الطبقة

العاملة، وتنويرها. ولن نتوقف هنا، بالتفصيل عن دور هذه الرواية الرائدة. ليس في روسيا، بل في العالم كله. والتي كانت، نقلة نوعية هامة على درب الإبداع، والنضال معاً. لأن القارئ عرف الكثير عنها وعن بطلتها الأم، بيلاجي نيلونفنا، وابنها المناضل بافل فلاسوف. والتي كانت من أولى شذرات الواقعية الاشتراكية، والتي أثارت جدلاً كبيراً، وما زالت.. وإن كان في هذه الأيام، يشتم رائحة التنكب إلى الماضي، وبدء الهجوم على غوركي في موطنه من قبل الصهاينة، فلا يعني، أن هذا الكاتب، المبدع، المناضل، قد فقد أهميته. وإن كانت بعض إبداعاته، انعكاساً لمرحلة النهوض الاشتراكي، فلا يعني أنها كانت مرحلية مؤقتة. وسنترك القارئ يتعرّف بنفسه على بعض مقالات غوركي في الأدب والفن: كيف تعلمت الكتابة، ومن ثم الواقعية الاشتراكية، التي فهمها الغير، لا كما فهمها هو، الذي يعد مؤسس هذه الطريقة الفنية.

كرتو 1990

مالك صقور

كيف تعلمت الكتابة

في كل المدن، حيث حالفني الحظ بالتحدث إليكم، سألني الكثيرون شفهياً وكتابياً: كيف تعلمت الكتابة؟ وُجّه إليّ هذا السؤال من أقاصي جمهوريات الاتحاد السوفياتي، وخاصة الشباب المبتدئون بالكتابة. واقترح علي الكثيرون تأليف "كتاب عن كيفية تأليف القصة". أو "تأليف كتاب الأدب" أو "النظريات الأدبية". كتاباً كهذا، لا أستطيع كتابته، حتى ولا أجرؤ على ذلك. إلا أن هناك كتباً مشابهة، علماً أنها ليست جيدة. ولكن مع ذلك، لا تخلو من الفائدة.

ومن الضروري للمبتدئين بالكتابة، أن يعرفوا تاريخ الأدب، وكتاب "كليتويال" تاريخ الأدب" مفيد لهذا الغرض. فهذا الكتاب يعرض تطور الإبداع "الشعبي" الشفهي، و"الأدبي الكتابي". يجب معرفة تاريخ تطور كل عمل من

الأعمال، فلو أن كل عامل عرف تطور العمل في الفابركا، أو المصنع، لكان عمل العمال أفضل بكثير مما هو عليه. إذ أنهم يدركون بعمق المعنى التاريخي والفني لمهنتهم. من الضروري أيضاً، معرفة تاريخ الأدب الأجنبي، لأن الإبداع الأدبي، من حيث الجوهر، هو واحد في كل بلدان العالم، وعند كل الشعوب. والأمر هنا لا يتعلق بالعلاقات الشكلية والخارجية، ولا ببوشكين الذي أعطى غوغُل موضوع روايته "النفوس الميتة"، و"رسائل نادي بيكفيكسكي" للكاتب ديكنز"، بل المهم أن ندرك تماماً، أنه منذ القديم ضفرت في كل مكان، وتضفر، "الأنشوطات من أجل الإحاطة بالروح البشرية" وأنه دائماً، في كل مكان يوجد أناس، وقفوا ويقفون أعمالهم وأهدافهم لتحرير الإنسان، من ربقة الخرافات والأباطيل، والأوهام. من المهم، معرفة أنه في كل مكان أرادوا، ويريدون طمأنة الإنسان. وأنه دائماً وفي كل مكان، وجد متمردون، سعوا ويسعون من أجل قلب الواقع الشنيع القذر. وفي النهاية، من المهم جداً معرفة أن هؤلاء المتمردين أضاؤوا الطريق للناس، ودفعوهم عليها إلى الأمام. وناهضوا ناشري الدعايات المطمئنة، المسكنة للواقع

المزري، الذي خلقتها الطبقة الحاكمة المسيطرة، والمجتمع البرجوازي الذي نشر وينشر الأوبئة المعدية في صفوف الشعب العامل. كالجشع، والكسل، والحقد والكراهية للعمل.

إن تاريخ الإبداع والعمل الإنسانيين، أهم بكثير من تاريخ الإنسان ذاته. فالإنسان يعيش حتى المئة، ومن ثم يموت، بينما تعيش أعماله قروناً. فالنجاحات الأسطورية للعلم، وسرعة تطوره تفسر معرفة العالم لتاريخ تطور اختصاصه. فهنا وهناك تلعب المراقبة والمقارنة، والبحث الدور الرئيس. فالفنان كالعالم، يجب أن يمتلك خصب الخيال، و"الحدس". إن خصب الخيال، والحدس، يكملان الحلقات الناقصة في سلسلة الحقائق، وتساعد العالم في إبداع "الفرضيات العلمية" والنظريات، التي يتحكم بها العقل. وهي بدورها، تدرس قوة الطبيعة وظواهرها، وبالتدريج تخضعها للعقل. ولإرادة الإنسان، وتصنع الحضارة، التي هي حضارتنا، وإرادتنا، المبدعة بعقلنا، والتي هي "الطبيعة الثانية".

كل هذا نؤكده بحقيقتين: لقد اكتشف العالم العظيم مندلييف على أساس دراسات العناصر المعروفة:

الرصاص، والكبريت، والزئبق.. إلخ، "جدول تصنيف العناصر"، ولقد برهن هذا الجدول أن في الطبيعة الكثير من العناصر الأخرى، التي لم يكتشفها أحد بعد. وكذلك، بيّن مندلييف صفات هذه العناصر، ووزنها النوعي، التي لم يعرفها أحد من قبله.

الحقيقة الثانية: هنري بلزاك، أحد أعظم روائيي فرنسا. فمن خلال مراقبته لسكولوجيا الناس، كتب في إحدى رواياته، أنه في جسم الإنسان سوائل قوية، لا يعرفها العلم، والتي تبدو واضحة من السمات النفسية والفيزيولوجية للإنسان. وبعد انصرام بضع عشرات من السنين، اكتشف العلم، أن جسم الإنسان يحتوي على "الإفرازات الداخلية". مطابقات كهذه، بين العمل الإبداعي للعلماء، والأدباء، ليست قليلة، فقد كان غوته ولومونوسوف شاعرين وعالمين في الوقت نفسه، وكذلك الروائي ستريندبرغ الذي كان أول من تنبأ في روايته "الكابتن كول" عن إمكانية استخلاص الآزوت من الهواء.

إن فن الإبداع الأدبي الذي هو فن خلق الشخصيات، و"النماذج" يتطلب خصب الخيال، والحدس، و"الخلق".

فالأديب الذي يصور تاجراً يعرفه، أو موظفاً، أو عاملاً فإنه يرسم صورة ناجحة بهذا القدر أو ذاك لهذا الشخص بالذات. ولكن الصورة، تبقى صورة ليس إلا، فتجريده لها من المعاني الاجتماعية والتربوية، فإنها لا توسع مداركنا، ولا وعينا حول الإنسان وحول الحياة.

ولكن إذا استطاع الكاتب، أن يكبّر من كل عشرين ـ خمسين أو مئة تاجرٍ وعاملٍ أو موظف الصفات الطبقية لهذه الشخصيات: العادات، الأذواق، الحركات، العقائد، والأساليب.. إلخ، بحيث يكبّر ويجمع كل هذه الصفات في شخص تاجر أو عامل أو موظف، فإن الكاتب، بهذه الطريقة يكون قد صنع "النموذج" ـ وهذا هو الفن بعينه.

إن رحابة المراقبة، وغنى التجربة الحياتية تسلّح الفنان بالقوة التي تحوّل علاقاته الخاصة، وذاتيته إلى الحقيقة. كان بلزاك ذاتياً مناصراً للمجتمع البرجوازي، لكنه صوّر في رواياته شناعة، ورذيلة، وقبح هذا المجتمع، بصراحة لا ترحم. وهنالك أمثلة كثيرة حيث يكون الفنان مؤرخاً موضوعياً لطبقته تساوي أهمية العالم الطبيعي، الذي

يرصد ظروف ومعيشة الحيوانات، وأسباب التكاثر والتناسل، والموت، ويصوّر من خلال اللوحات، صراعها من أجل الحياة. لقد طورت غريزة الدفاع عن النفس من أجل الحياة في الإنسان قوتين إبداعيتين هائلتين: **الوعي، والتخيل**، فالوعي ـ هو قوة المراقبة، والمقارنة، ودراسة ظواهر الحياة ووقائع الحياة الاجتماعية؛ وخلاصة الكلام: الوعي ـ هو تفكير ـ والتخييل أيضاً، في جوهره، هو تفكير عن العالم، لكن التخييل بطريقة الصور "الفنيّة"، ويمكن القول، إن التخييل ـ هو موهبة تعطي ظواهر الطبيعة العفوية والأشياء، صفات إنسانية، ومشاعر، وحتى عزيمة وقوّة.

نقرأ ونسمع: "**تبكي الريح**" و"**تئن**"؛ "يشع القمر متأملاً"، "**نتش النهر الشجيرات القديمة**"، "**عبست الغابة**"، "**أرادت الموجة أن تزحزح الصخرة، فقطبت حاجبيها تحت ضرباتها، وصمدت ولم تتزحزح**" ،"**الكرسي زعق كالعلجوم**"، "**تعرّق الزجاج**" مع أنه ليس للزجاج غدّة تفرز العرق.

كل هذا، يجعل ظواهر الطبيعة واضحة، مفسرة بالنسبة إلينا، أكثر. وتسمى (**انتروبومورفيزم**) (antnropomorphisme) من الكلمة الإغريقية، (انتربوس ـ إنسان؛ ومورفة ـ الشكل ـ الصورة). نقصد هنا، أن الإنسان يخلع على كل الأشياء، صفاته الإنسانية. يتخيل، يصوّر، ويحملها معه أينما حل، وأنّى كان ـ كل ما يصنعه بعمله وكدحه، وكل ما يخترعه بعقله.وهناك أناس يعتقدون، أن (الأنتروبومورفيزم)، مُضر في الفن، ولا يناسبه، ولكن هؤلاء بالذات يقولون: "**قرص البرد الأذنين**"، "**ابتسمت الشمس**"، "**جاء أيار**"، "**الجو سيء**" مع أن ظواهر الطبيعة، لا تخضع لتقييماتنا الأخلاقية..

... إلا أننا نرى، أن الإنسان الذي يملك موهبة التخييل، قد تخيل أبطالاً، لا وجود لهم. أمثال، هرقل، والفلاح الروسي الجبار إيليا مورموتس، تخيلوا أبطالاً، وجسدوهم في شخص فلاح، أو تاجر.. إلخ، ومن هذا التخييل حصلنا على "النموذج الأدبي". على سبيل المثال: نموذج فاوست وهاملت ودون كيشوت، وهكذا أيضاً كتب تولستوي "قتيل الرب"، ونماذج دوستويفكي المختلفين، ونموذج

(أبلوموف) غونتشاروف.. إلخ. فهؤلاء الناس، كيفما كانوا في الحياة، صغاراً أم كباراً، منحطين أخلاقياً، أو يتمتعون بالصفات الإنسانية الرفيعة، فإن الفنانين مبدعي الكلمة، خلقوا منهم "نماذج" ذات قيمة معنوية، فكل كذاب ونصاب نسميه خليستكوف، وكل متزلف نسميه مولتشالن وكل منافق نسمي طرطوف، وكل غيور نسميه عطيل... الخ.

إن الاتجاهين الأساسيين، أو الطريقتين الأساسيتين، في الأدب هما: **الرومانتيكية والواقعية**. تتسم الواقعية بالحقيقة، وبعدم تزيين الناس، وزخرفة ظروف حياتهم. أما الرومانتيكية، فقد وضعوا لها صيغاً عديدة، وحتى الآن، لم توضع الصيغة الدقيقة والمطلقة، التي يمكن أن يجمع عليها مؤرخو الأدب جميعاً ولكن من الضروري، تميز جانبين في الرومانتيكية: **الرومانتيكية السلبية والإيجابية**: فالرومانتيكية السلبية تحاول، إما أن تهادن بين الإنسان والواقع أو تزيّن الواقع له، وتنسى الواقع متجهة إلى الأفكار غير المثمرة "**القدر المحتوم المميت**"، "**الحب والموت**"، أو تتجه إلى الألغاز. وأما الرومانتيكية الإيجابية، فتسعى إلى تقوية

إرادة الإنسان في الحياة، وتوقظ فيه روح التمرد ضد واقعه، وضد كل ظلم.

ولكن بالنسبة إلى الكتاب الكلاسيكيين، أمثال، بلزاك وتورغينيف، وتولتسوي، وغوغول، وبيسكوف وتشيخوف فمن الصعب، الحكم عليهم بدقة تامة، على هم رومانتيكيون، أم هل هم واقعيون؟ **حتى لكأن الواقعية، والرومانتيكية تتحدان في الكتّاب العظماء**. فبلزاك واقعي، ولكنه كتب روايات، كرواية "**الجلد المسحور**" التي هي بعيدة جداً عن الواقعية، وكتب تورغنيف أيضاً أشياء بروح رومانتيكية. كذلك كتّابنا العظماء من غوغول وحتى تشيخوف وبونين. إن تمازج الواقعية والرومانتيكية سمة من سمات أدبنا، وهي تعطيه الأصالة، والقوة التي تؤثر بعمق في الأدب العالمي كلّه.

إن العلاقة المتبادلة بين الرومانتيكية والواقعية ستكون أوضح لكم أيها الرفاق، إذ ركزتم انتباهكم على السؤال التالي: "**لماذا تظهر الرغبة في الكتابة؟**" عن هذا السؤال لدينا جوابان، عن أحدهما، تجيب إحدى قارئاتي التي تراسلني، وهي فتاة عمرها خمسة عشر عاماً، ابنة

عامل، كتبت لي في إحدى رسائلها تقول: "عمري خمسة عشر عاماً، لكن في مثل هذه السن المبكرة، ظهرت عندي **موهبة** الكتابة، وسبب ذلك، الحياة الفقيرة الشاقة".

كان من الأفضل، بالتأكيد، لو قالت، ظهرت عندي "**رغبة في الكتابة**" لا "**موهبة الكتابة**" من أجل تزيين "تخيلها"، وتغنيه "بالحياة الفقيرة التّعيسة".

وهنا يطرح سؤال نفسه: **ماذا يمكن أن تكتب، وأنت تعيش "الفقر المدقع"؟**

نجيب عن هذا السؤال، شعوب البوفولجا وسيبيريا، فهؤلاء، لم يمتلكوا أدباً مكتوباً، حتى الأمس القريب ولكن منذ بضعة قرون وحتى أيامنا هذه، أغنوا وزيّنوا "حيواتهم الفقيرة الشاقة" في الغابات الموحشة، والمستنقعات، وفي سهوب الشمال والشرق بالأغاني والحكايات والأساطير عن الأبطال وعن الآلهة، وكان ذلك "**إبداعاً دينياً**" ولكن في جوهره، كان **إبداعاً أدبياً**.

فإن كانت الموهبة، قد ظهرت فعلاً، عند مراسلتي ـ فإنني أتمنى لها من الأعماق النجاح ـ وإنه لمن المستحيل، أن تكتب أشياء "رومانتيكية" بل ستكتب لإغناء "الحياة

الفقيرة المذلة" بتخيلات جميلة، وستصف الناس بأفضل مما هم عليه.

لقد كتب غوغل "كيف تشاجر إيفان ايفانوفيتش مع إيفان نيكيفورفيتش" و"الإقطاعيين" و"النفوس الميتة". وكتب "تاراس بولبا" أيضاً. في قصصه الثلاث الأولى، صوّر الناس ونفوسهم الميتة". وكان تصويره ـ حقيقة ساطعة. فلقد عاش مثل هؤلاء الناس، ويعيشون حتى يومنا هذا فبتصوير غوغل هذا، فإنه كتب كـ"واقعي". وفي قصته "تاراس بوليا"، صوّر القوزاقيين، الفرسان، الأقوياء، شديد البأس. وعموماً قوزاق كهؤلاء، لم يكونوا يوماً، وقصة غوغل عنهم جميلة وليست حقيقية. وغوغل هنا، رومانتيكي، وأغلب الظن، أنه رومانتيكي لأنه تعب من مراقبة "الحياة الفقيرة التعسة الشّاقة" للنفوس الميتة.

أيفهم من مجمل ما قلت أعلاه، أني أؤكد ضرورة الرومانتيكية في الأدب؟ نعم، وأدافع عن ذلك، لكن في ظروف (شروط) جد إضافية جوهرية "رومانتيكية".

مراسل آخر لي، عامل، عمره سبعة عشر عاماً، كتب إلي صارخاً: "لدي الكثير من الانطباعات وليس بوسعي أن

لا أكتب"، في هذه الحالة، تفسر رغبة الكتابة ليس بـ"فقر" الحياة، بل بغناها، الحياة المشحونة بالانطباعات التي تستصرخ النداء الداخلي بالكتابة عنها. إن الأكثرية الساحقة من مراسلي الشباب يريدون الكتابة. لأن انطباعاتهم غنية وكثيرة و"**لا يستطيعون السكوت**" عما يرون، ومما يعانون. ومن المحتمل أن يكون بينهم عدد غير قليل "**واقعيين**"، ولكنني، أعتقد، أن واقعيتهم ستحمل بعض سمات الرومانتيكية التي لا مناص منها كقانون في مرحلة النهوض الروحي، ونحن قلقون على هذا النهوض.

وهكذا، على سؤال، **لماذا صرت أكتب؟ ـ أجيب: من جراء الضغط العنيف عليَّ من "الحياة الفقيرة الصعبة"**، ولأنه، تكوّنت لديّ انطباعات كثيرة، حيث "لم أستطع إلا أن أكتب"، والسبب الأوّل، جعلني أحاول أن أحمل إلى الحياة "الفقيرة أفكاراً، و"تخيلات" مثل "حكاية عن الصقر والأفعى" و"أسطورة القلب المشتعل" و"طائر النورس". وبدافع السبب الثاني، صرت أكتب قصصاً ذات طابع "واقعي" ــ **ست وعشرون وواحدة"، "زوجات أرلوف"، "الشقي"**.

وعن قضايا "الرومانتيكية" في أدبنا، من الضروري، معرفة التالي: قبل تشيخوف وبونين، أحب (أدبنا النبيل) الفلاح، واستطاع تصويره بشكل رائع، على أنه ذلك الإنسان الوديع الدمث، الصبور المحب "للحقيقة المسيحية" التي لا وجود لها في الواقع، والتي يحلم بها الفلاحون طول حياتهم. أمثال كالينتش لـ(تورغينف) من قصته "الجوقة وكالنتش" وبلاتون كاراتايف، من الحرب والسلم لـ(تولستوي). ولقد بدؤوا بوصف الفرح الوديع، الدمث، الصبور، والحالم أيضاً" بالحقيقة السماوية" قبل تغيير نظام الرق بعشرين عاماً. مع أنه، في أثناء عهد الرق والعبودية، دفعت القرية المستعبدة، من وسطها الجاهل منظمين صناعيين: آل كوكريف، آل غوبونين، آل موروزف، آل كولتشين، آل جورافليف.. إلخ. وبالإضافة إلى هذا، كثيراً ما ذكرت الصحافة الشخصية الأسطورية العظيمة، التي خرجت من "الفلاحين" ـ لمونوسوف. الشاعر وأحد أعظم العلماء.

كتب ليف تولستوي عام 1852 قصة حزينة جداً "**صباح الإقطاعي**" تحدث فيها ببراعة، كيف أن العبيد لا يثقون

بالسيد الطيب الليبرالي. في عام 1862 بدأ تولستوي بتربية أولاد الفلاحين، وهو يعارض "التقدم" والعلم، ويطالب الناس: **تعلموا العيش الهنيء من الفلاح**، أما في السبعينات فقد شرع بكتابة قصص "**للشعب**".وصوّر في تلك القصص حب الفلاحين للمسيح، والفلاحين الرومانتيكيين، ويُعلّم أن أفضل وأمتع حياة هي في القرية. وأفضل عمل هو عمل الفلاحين "في الأرض" وفي قصته "**ما هي حاجة الإنسان من الأرض**" ـ يجيب تولستوي إن الإنسان **بحاجة إلى مترين فقط ـ موضع قبره**.

ولقد فرزت الحياة من هؤلاء الفلاحين الودعاء محبي المسيح بناة للأشكال الجديدة للحياة الاقتصادية، وبرجوازيين، موهوبين كباراً وصغاراً، ووحوشاً مفترسة، مثل آل رازوفايف وكولوبايف والذين صورهم سالتيكوف ـ شيدرين، وغليب أوسبينسكي، وإلى جانب الوحوش المفترسة، ـ صورّوا المتمردين والثوار، ولكن كل هؤلاء الناس لم يلحظهم الأدب النبيل ـ غانشاروف في روايته "أبلوموف" التي تعد من أفضل روايات أدبنا ـ **قابل الكسلان الروسي بالإقطاعي الغبي الألماني**. ولكن لا يوجد فلاح

واحد من الفلاحين الروس "السابقين" الذي عاش بينهم غانشاروف، من الذين قاموا بإدارة اقتصاد البلاد. وإن صادف، وصّور كتاب النبلاء (الثوري)، فإما أن يصوروه أجنبياً ـ بلغارياً أو عاقاً متمرداً حسب كلمات رودين، ولقد بقي الإنسان الروسي النشيط ذو الإرادة كبطل العصر، خارج نطاق الأدب، خارج "مجال حقل رؤية" الأدباء، مع أنه صرخ مذكراً بنفسه ما فيه الكفاية، ويمكن ضرب الكثير من الأمثلة والبراهين على أن الرومانتيكية الداعية للحياة، وللقيام بالمآثر، كانت غريبة على الأدب الروسي النبيل. ولم يستطع تقديم بديل عن "قطاع الطرق" لشللر، ولكن "النفوس الميتة" صوّرت ذلك بشكل منقطع النظير، و"التابوت الحي" و"بيت الموتى" و"الجثث الحية" و"ثلاث ميتات" والكثير من الميتات الأخرى. وكأن الجريمة والعقاب "رواية دوستويفسكي، كتبت لتقابل "قطاع الطرق" لشللر. أما مسرحيات دوستويفسكي، فإنها الأكثر موهبة، والأكثر حقداً من بين العديد من المحاولات التي انتقصت من الحركة الثورية في السبعينات. كما كانت الرومانتيكية الثورية ـ الاجتماعية، غريبة أيضاً عن أدب

المـثقفين البرجـوازيين الـصغار. فـالمثقف البرجـوازي كـان مـشغولاً جـداً بمـصيره الخـاص، وبالبحـث عـن دوره في دراما الحيـاة. وفي أثنائهـا، عـاش المثقـف البرجـوازي بـين "المطرقـة والسندان"، المطرقة ـ **الطبقة الحاكمة المستبدة؛ السندان ـ الشعب.**

إن قـصص سيبتـسوف "الـزمن الـصعب" وأوسـيبوفيتش نوفودفورسـكي" لـيس طاووسـاً ولا غرابـاً" ـ إنهـا كتابـات قويـة، صـوّرت الوضـع التراجيـدي لأذكيـاء النـاس الـذين يلـم يمتلكـوا مـسنداً قويـاً في الحيـاة، ولم يعيـشوا "طـواويس أو غربانـاً".

وهكـذا، فالكتّـاب، الـذين يطلـق علـيهم كتّـاب شـعبيون: زلاتوفراتـسكي، وزاسوديمـسكي، فولوغـدين، ليفتيـوف، نيفـدوف، نيقـولاي أوسبينـسكي وكـثيرون غيرهم، عملوا جاهدين في ظل (الأدب النبيل) لتزيين القرية والفـلاح، الـذي كـان شـعبياً واشـتراكياً بطبيعتـه. والـذي لا يعـرف حقيقـة غـير حقيقـة" "الجماعـة" و "الـسلام" والحيـاة الجماعية المشتركة، وكان أول من أوحى بهذه النظرة إلى الفلاحين هو النبيل الرائع الموهوب **غيرتسن**. وقد تـابع دعايتـه

فيمايلوفسكي الذي ابتكر "الحقيقة" و"العدالة". إن تأثير هذه المجموعة من الأدباء كان ضعيفاً وزمنياً قصيراً. و"رومانتيكيتهم" تميزت عن رومانتيكية النبلاء بضعف الموهبة، وبالحالمين ـ الفلاحين ميناي وميتياي ـ نسخ سيئة عن (بروتريهات) بوليكوشكي وكالينتش وكاراتايف، وفلاحين آخرين مشابهين.

التزم بهذه المجموعة أدبيان لكنهما امتازا بحدة البصر والموهبة، أكثر من الجميع، حتى من الشعبيين، وهما أدبيان كبيران: مامين سيبيرياك، وغليب أوسبينسكي. فهما أول من شعرا ولاحظا الفرق بين القرية والمدينة، بين العامل والفلاح.وخاصة، أن "أوسبينسكي" مؤلف كتابين عظيمين: "**أخلاق الشارع الضائعة**" و"**سلطة الأرض**". فالقيمة الاجتماعية لهذين الكتابين، ما زالت حتى يومنا هذا. وعموماً فإن قصص أوسبينسكي لم تفقد معناها التربوي، وأدب الشباب، يمكن أن يتعلم على هذا الكاتب كيفية المراقبة، واتساع معارف الواقع...

... من البديهي، أني أعرف تماماً، **أن الطريق إلى الحرية وعرة جداً**، ولم يحن الوقت بعد، لشرب الشاي

باطمئنان، مع الأصدقاء ومع الصبايا الحسان، أو الجلوس أمام المرآة (ليتمتع المرء بالنظر إلى نفسه) كما يفعل كثير من الشباب في هذه الأيام.

ففي الوقت، الذي يسري في أوروبا انحطاط الإنسان، تتطور عندنا في جماهير الكادحين، الثقة بالنفس، وفي قوى الحياة الجماعية. يجب أن تعرفوا أيها الشباب، أن الثقة بالنفس تظهر دائماً، في عملية إزاحة المعوقات من على الطريق، وغدّ السير نحو الأفضل. هذه الثقة هي **القوة الإبداعية الحقيقية**.

لا أتذكر، أنني في شبابي اشتكيت من الحياة. فالناس الذين عشت بينهم، أحبوا جداً، أن يتذمروا من الحياة، لكنني لاحظت، أنهم يفعلون هذا، من خبثهم، ومن أجل أن يحفظوا بشكواهم وتذمرهم، عدم رغبتهم بمساعدة بعضهم بعضاً وأنا حاولت عدم الاقتداء بهم. ولكن، تأكدت فيما بعد، أن الناس الذين يشتكون من الحياة، هم الذين لا يستطيعون المقاومة، الذين ليس لديهم رغبة في العمل. وعموماً هم أولئك الذين هوايتهم في أن يعيشوا "الحياة السهلة" على حساب الآخرين.

لقد عانيت الرعب كثيراً أمام الحياة، والآن اسمي هذا الرعب ـ **الرعب الأعمى**. لقد **عشت حياة قاسية جداً**، ورأيت منذ طفولتي مصاعب لا توصف، وشعرت بحقد الناس الذي لم أفهمه، وكنت عرضةً لاضطهاد الآخرين من غير رحمة، وفهمت مبكراً، أن الناس الذين يعدوّن أنفسهم "**قريبين من الرب**" المتدينين، **ظلموا باسم الدين العمال والبائسين**. عموماً، رأيت بأم عيني الحياة الشنيعة القذرة، والتي لا ترونها أنتم اليوم، بالإضافة إلى ذلك، لقد رأيت الحياة بأشكالها القبيحة. الآن، ترون البرجوازية، أمامكم، كيف ذعرت من الثورة، وكيف فقدت الثقة بنفسها؛ وبحقها في العيش كما كانت، وترونها كيف تتذبذب كما هي طبيعتها. أما أنا فقد رأيت البرجوازية، عندما كانت في أوج عزها وكانت واثقة من حياتها السعيدة، وأن هذه الحياة السعيدة الهادئة مستمرة إلى الأبد.

في تلك الآونة، قرأت روايات أجنبية مترجمة، لكتّاب عظماء، مثل، ديكنز وبلزاك، وكذلك روايات انيسفورت التاريخية، وبولفرليتون ودوماس. حدثتني هذه الكتب عن أناس أقوياء الإرادة، ذوي طباع صلبة، قرأت عن أناس

يعيشون أفراحاً أخرى، ويتألمون من أشياء أخرى.. أما أنا فقد عاش حولي أناس قذرون جشعون، حاسدون تشاجروا، وشكا بعضهم بعضاً، إذا ابن الجيران كسر رجل دجاجتهم،أو كسر زجاج نافذتهم، أو لأن الفطائر احترقت، أو لأن (اللحمة) في الشوربة سيئة، أو لأن الحليب قد فسد. كان بوسعهم أن يقضوا ساعات بكاملها، يناقشون، في أن السمّان زاد قرشاً واحداً على سعر كيلو السكر. وأن تاجر الفاتورة رفع ثمن متر (الشيت) قرشاً. وكانوا إذا ما حصل مكروه للجيران، فإنهم يفرحون، ويشتمون، لكنهم يخفون ذلك. ويتظاهرون بأنهم يشاركونهم في آلامهم. لقد رأيت جيداً، أن القرش الواحد هو الشغل الشاغل للبرجوازية، ولهؤلاء اللئام، محدودي الأفق. وأن القرش يُشعل في الناس الحقد الأسود القذر، فمضمون حياة الناس الذين عشت بينهم كان: الأواني، السماورات، الجزر، الدجاج، المأكولات، تاريخ الولادات، تاريخ الوفيات،والنهم والجشع، والتخمة حتى الموت ـ هذا هو مضمون حياة الناس الذين عشت بينهم. إن هذه الحياة القذرة الشنيعة، المخدرة، المكدّرة، المضجرة، أيقظت فيَّ رغبة (الشقاوة) كي أوقظ

نفسي. وعن الضجر كتب لي أحد مراسلي، منذ فترة قصيرة، عمره تسعة عشر عاماً: "إني أكره هذا الضجر المقيت المملوء بزعيق الكلاب".

وهكذا، ذات مرة، ومن جراء الضجر القاتل (تشاقيت). صعدت السطح ليلاً، وسددت مدخنة المدفأة، بالأوساخ والخرق. وقذفت بالشوربة ملحاً، ونفخت من خلال اسطوانة ورقية غباراً في ساعة الحائط. وعموماً، لقد فعلت كثيراً من الأفعال، التي تسمى (شيطنة). فعلت ذلك، بسبب رغبة تيقظت في داخلي كي أشعر بنفسي أني إنسان حيّ. وفي حينها، لم أعرف الطرق التي بواسطتها يمكن أن أتأكد أنني حي. خيل إلي، أني فقدت طريقي في الغابة، وسط عاصفة هوجاء، في مستنقع من الوحل، حيث تغطس الرجل فيه حتى الركبة.

أتذكر هذه الحادثة: ذات مرة، ساقوا معتقلين، في الشارع، الذي كنت أعيش فيه، من السجن إلى الباخرة في نهر الفولغا، ومنه إلى سيبيريا. فلقد شدني هؤلاء القوم المغبرو الوجوه. ومن المحتمل أني حسدتهم، لأن بعضهم كان يسير تحت الحراسة المشددة وبعضهم الآخر، كان مقيداً

بالأغلال. ولكنهم مع ذلك ذاهبون إلى مكان ما في الوقت الذي أنا مضطر للعيش فيه بالضبط ـ كالجرذ في القبو ـ في مطبخ قذر جداً وذات مرة، ساقوا مجموعة كبيرة أخرى، إلى الأعمال الشاقة، مكبلين بالأصفاد. وفي المؤخرة قرب الجدار سار اثنان منهم، مربوطين ببعضهما، بأيديهما وأرجلهما. كان أحدهما كبير الجثة، بحاجبين أسودين وعينين كعيني الفرس. وندبة حمراء عميقة في الجبين من أثر جرح كبير، وأذن مشرومة، بكلمة، كان منظره مرعباً. ورأيتني وأنا مشدوه بالنظر إليه أخذت أقتفي أثره.

وفجأة ناداني بصوت عال مرح: إيه، أيها الصبي، تعال وتجول معنا! فكأنه بهذه الكلمات، قد أمسك بي من يدي. ومن فوري هرعت إليه، ولكن الشرطي دفعني عنه شاتماً ولو أن الشرطي لم يدفعني كي أبتعد، لكنت ذهبت معه ـ وكأنني في الحلم ـ أجل، لذهبت مع هذا الرجل المرعب، لأنه رجل غير عادي، ولا يشبه الناس الذين أعرفهم. ليكن مرعباً، وليكن مقيداً بالأغلال، ولكنه ذاهب إلى حياة أخرى. لقد تذكرت الرجل طويلاً، وتذكرت صوته المرح الطيب. فقامته الطويلة الفارعة، ارتبطت بذهني وولَّدت

عندي انطباعات قوية: وقع بين يدي كتاب، كان سميكاً. وبدايته، كانت صعبة. قرأته ولم أفهم منه شيئاً، سوى، حادثة في إحدى صفحاته، عن الملك الذي اقترح على الرامي البسيط، أن يمنحه لقب (نبيل) ولكن الرامي أجاب شعراً:

آخ، دعني أعيش واتركني أنهي حياتي بحرية
كان أبي فلاحاً بسيطاً ـ وابني سيكون فلاحاً
والمجد سيغدو أكبر، عندما يكون أخونا طيباً
لأنه سيكون مخلصاً في العمل، أكثر من السيد النبيل

كتبت هذه الأبيات الصعبة في دفتري، ولقد ساعدتني طويلاً، وكانت بالنسبة إلي، بمنزلة العكاز للرجل المسن. وكانت الدرع الذي حماني من الانزلاق نحو تعاليم البرجوازية الرديئة "السادة النبلاء". وعلى الأرجح، أنه في حياة الكثيرين من الشباب، تصادف كلمات تُغني خيالهم الفني، وتكون بمنزلة القوة الدافعة، كما الريح المؤاتية توجّه الشراع. بعد عشر سنوات، عرفت أن هذه الأسطر من "كوميديا الرامي المرح، لجورج غرين عن روبين غوديه"،

وقد كتب الكوميديا في القرن السادس عشر، سلف شكسبير روبرت غرين. لقد فرحت جداً عندما عرفت ذلك، وأحببت الأدب أكثر. الأدب، الذي هو **الصديق الأمين للناس ومساعدهم في الحياة الصعبة منذ أقدم الأزمنة.**

أجل أيها الرفاق! لقد عانيت كثيراً الرعب، عانيت هذه الحياة القاسية الرذيلة ووصل بي الأمر، إلى أني حاولت الانتحار، ولكن، بعد مضي أعوام كثيرة، عندما أتذكر تلك السخافة، أحتقر نفسي، وأشعر بالعار يحرقني.

لقد تخلصت من هذا الرعب، بعدما فهمت أن الناس ليسوا أشراراً بهذا القدر، كهؤلاء الجهلة، وأن الذي يخيفني ليسوا هم وليست، الحياة، بل كان مصدر خوفي هو جهلي وعريي، ووقوفي أعزل دون سلاح أمام هذه الحياة. أجل هكذا، بالضبط ـ وأعتقد أنه يجب عليكم، أنتم خاصة، أن تفكروا بذلك. لأن الرعب، والشكوى، والألم، نجدها بشكل من الأشكال في الوسط الذي تعيشونه. وذلك كنتيجة لإحساس المتذمرين مقدمي الشكاوي وعزلتهم أمام الحياة، وعدم ثقتهم بقدرتهم على المقاومة داخلياً وخارجياً، وضد كل ما يضطهد الإنسان.

يجب عليكم أن تعرفوا، أن أمثالي من الناس، كانوا وحيدين، ومنبوذين من قبل المجتمع، أما أنتم، فإنكم أولاد الطبقة الكادحة، التي أدركت قوتها، وامتلكت السلطة، سلطة العمال والفلاحين، السلطة التي يجب أن تساعدهم على تطوير مواهبكم إلى الكمال. وهذا ما بدأت بفعله بالتدريج. وكان بوسعها أن تنجز أكثر، وبنجاح لولا عرقلة البرجوازية لها، عدوها وعدوكم الدموي.

عليكم أن تثقوا بأنفسكم، وبقوتكم، وهذه الثقة تكتمل بكسح المعوقات، وبتربية الإرادة، وذلك "بالتمرين والتدريب". يجب أن تتعلموا كيف تنتصرون على أنفسكم، ويجب أن تتعلموا كيف تهزمون في أنفسكم موروث الماضي الكريه. وإلا فكيف ستتخلصون من "العالم القديم المهترئ". فهذه الأغنية لا تستأهل أن تُغنى، إذا لم تتوافر القوة، والرغبة، لتنفيذ ما تعلّمه هذه الأغنية. فالنصر الصغير الذي يحرزه الإنسان على نفسه، يجعله قوياً بعض الشيء. إنكم تعرفون، أن الإنسان الذي يمارس الرياضة يصبح قوياً، وصحيح الجسم، ورشيقاً، وهكذا، يجب تمرين العقل والإرادة وترويضهما.

هاكم حادثة، تبرهن على أروع ما توصلت إليه هذه التمارين. منذ فترة ليست بعيدة، عرضت امرأة في برلين، ما يلي: أمسكت هذه المرأة في كل يد قلمين وثبتت بين أسنانها القلم الخامس، وفي الوقت نفسه، استطاعت أن تكتب خمس كلمات مختلفة، بخمس لغات أجنبية. فللوهلة الأولى، يخيل للمرء أن هذا مستحيل، لا لأن هذا صعب فيزيولوجياً، بل أن ذلك يتطلب عقلاً ليس عادياً، غير أن الأمر كان حقيقة واقعية. ومن جهة ثانية، إن هذه الحقيقة، تبرهن في جوهرها، كيف أن الإنسان يهدر مواهبه الرائعة في المجتمع البرجوازي الفوضوي. فلكي يجذب الإنسان الانتباه إليه، يجب أن يمشي على رأسه في الشارع، أو، يجب القيام بالألعاب "البهلوانية" التافهة. وكل ذلك لتسلية الناس المتشبعين ضجراً.

يجب عليكم، أيها الشباب أن تعرفوا، كل ما هو قيم ومفيد ورائع وكل ما أنجزته البشرية في مجال العلم، والفن، والتكنولوجيا، كل ما صنعه الأفراد في ظروف صعبة، لا إنسانية، في "المجتمع" الجاهل. ويجب أن تتذكروا أيضاً، أن بين بُناة الحضارات الكثيرين من العمل البسطاء،

مثل الفيزيائي الكبير (فاراديه) و(أديسون). وأن آلة الغزل قد اخترعها الحلاق أراكرايت، وأن أحد أفضل رسامي الخزف كان الحداد برنارد باليس، وأن أعظم درامي في العالم هو الممثل البسيط شكسبير. وكذلك، كان موليير، وهناك مئات الأمثلة، على أمثال هؤلاء الناس، الذين حققوا نجاحاتهم بفضل هذه "التمارين".

كل هذا، كان ممكناً، للأفراد العاملين، الذين لا يملكون احتياطياً ذا قيمة من المعارف العلمية والتكنولوجية، كما تمتلكون في عصرنا الراهن.

على عاتقكم تقع مهمة عظيمة، واضحة هي "التخلص من العالم القديم" وبناء العالم الجديد، الذي بدئ ببنائه. أما بالنسبة لطبقتنا العاملة، فإنها تنمو في كل مكان، ومهما وضع العالم القديم العصي في عجلاتها، فإنها ستتطور، وبالتدريج يتجمع حولها، كل عمال الأرض. ولقد طُرح أمام هذه المهمة بجرأة سؤال كبير "**ما العمل؟**"، ولكن من المفروض ألا يجد مكاناً له، وألا يقال: (إن الحياة صعبة؛ أو أنها صعبة حقاً. أليست صعبة هي الحياة!). لأن متطلباتها أصبحت أكبر وأكثر مما كانت عليه في عهد آبائكم، الذين لم يروها ولم يفكروا فيها.

إني أعرف بالتأكيد، أن الكثيرين بينكم، مسرورون بالعمل الجماعي، هذا العمل الذي لا يهدف إلى تجميع الملايين، **بل لتحطيم سلطة القرش الدنيئة على الإنسان. الإنسان الذي هو أعظم وأعجب ما في هذا الكون، الإنسان مبدع كل العجائب على هذه الأرض.**

والآن، أجيب عن سؤال: كيف تعلمت الكتابة؟

تكونت انطباعاتي مباشرة من الحياة، ومن الكتب. ويمكن مقارنة انطباعاتي الأولى بمواد الخام الأولية، أما الثانية ـ فكانت كالقطعة نصف المصنعة، أو بكلام فج، كي يكون واضحاً ــ في الحالة الأولى، كان أمامي حيوان، أما في الحالة الثانية، فقد سُلخ جلده، وصُنّع تصنيعاً جيداً. إني مدين جداً للأدب الأجنبي، وخاصة ــ الأدب الفرنسي.

لقد كان جدي قاسياً وبخيلاً، ولكن لم أره، ولم أفهمه جيداً، كما رأيت وفهمت "يفغيني غراندي"، عندما قرأت رواية بلزاك التي تحمل العنوان نفسه. فأبو يفغيني العجوز غراندي، كان بخيلاً وقاسياً أيضاً. وعموماً يشبه جدي. ولكنه كان أشد غباءً من جدي. وليس ممتعاً

مثله، وبمقارنتي بين العجوز الفرنسي، وبين العجوز الروسي الذي لا أحبه، ربحت وكبرت وذلك لم يجعلني أغيّر علاقتي بجدي، ولكن كان ذلك فتحاً كبيراً ـ فالكتاب الذي يحتوي هذه الموهبة، جعلني أرى فيه مالم أكن أراه، وعرفت فيه، مالم أكن أعرفه.

رأيت في كتاب جورج إيللوت "ميدلمراتش" الممل، وكتب أورباخ، **وشبيلفا غين**، الريف الإنكليزي، والألماني، حيث لا يعيش الناس، كما يعيشون في نيجني غورود، وفي شارع **زفينر دنسكي**، بل أفضل بقليل. تحدثت تلك الكتب عن الإنكليز والألمان، وعن المال. وعن ضرورة تقديم الحب للرب، والرعب أمامه.

غير أنهم يشبهون أناس شوارعنا، لا يحبون بعضهم بعضاً، خاصة، لا يحبون الناس المميزين، الذين لا يشبهون الأكثرية المحيطة بهم، بهذا القدر أو ذاك. لم أفتش عن وجه التشابه بين الأجانب والروس. كلا لم أفتش عن ذلك، بل بحثت عن وجه التفاوت بينهما. لكني وجدت التشابه. كان صديقا جدي ايفان شوروف وياكوف كوتيلنكوف تاجرين مفلسين، وتناقشوا دائماً، كما تناقش الناس، في رواية تيكر الرائعة: "**بازار الحياة الهوجاء**".

لقد تعلمت القراءة والكتاب بـ(العهد القديم). وأحببت هذا الكتاب، الذي كتب بلغة موسيقية رائعة، وعندما كان ياكوف كوتيلنكوف وجدي والعجائز عموماً، يشكون، بعضهم لبعض أولادهم، تذكرت شكاوى الملك داوود لربه على ابنه المتمرد. وخيل إلي، أن هؤلاء المسنين يكذبون، وهم يبرهنون لبعضهم بعضاً، أن الناس عموماً، والشباب خاصة، أصبحوا، أسوأ، وأغبى، وأكسل من ذي قبل. ولا يعبدون الله. هكذا، بالضبط، كما تحدث أبطال ديكنز المنافقون...

... لم أتبع في قراءاتي، أي برنامج، تم ذلك مصادفة، فأخو معلمي، فيكتور سرغييف، أحب قراءة الروايات الفرنسية كسافيه دي مونتين، غابور ريو، زاكونية، بوفيه، وبعد أن فرغ من قراءة هؤلاء المؤلفين، عثر على كتب روسيه، هزأت بحقد من "النهلستين الثوريين". وأنا أيضاً قرأت "قطيع بانورغوف" ـ كريستوفسكي، "لا إلى مكان" ـــ ستينبيتسكي ـــ ليسكوف، و"سراب" كليوشنيكوف، و"البحر الهائج" بيسيمسكي. كان من الممتع أن أقرأ عن أناس لا يشبهون الناس الذين أعيش بينهم

بشيء. وكأنهم يمتون بصلة القربى إلى قاطع الطريق الذي دعاني "للتجول" معه. إن "ثورية" هؤلاء الناس، لم أفهمها حيث صور المؤلفون، الذين كتبوا عن الثوريين" الجانب الأسود فقط.

مصادفة، وقعت قصص بوميالوفسكي في يدي. "مولوتوف" و"السعادة البرجوازية". وعندما أراني بوميالوفسكي "الفقر المدقع" بالنسبة إلي، شعرت أن "النهلستيين" الكئيبين، أفضل من مولوتوف. وبعد بوميالوفسكي، قرأت كتاب زاروبين الممل "الجوانب المظلمة، فأصبحت مفهومة وكريهة، وقرأت كتباً رديئة، لا تحصى، لكنها كانت نافعة، **فالسيئ في الحياة، يجب أن يعرف كما الجيد**، يجب معرفة الكثير وقدر الإمكان، وبقدر ما تكون التجربة غنية، ومتعددة الجوانب، ترفع الإنسان، وتجعله واسع المدارك. أعطاني الأدب الأجنبي، مواد وفيرة، من أجل المقارنة، وأدهشتني روعة صنعته. فلقد رسم الناس بحيوية، وانسجام، حتى خيل إلي أنهم أقوياء جبابرة، ورأيتهم أنشط من الروس ـ تكلموا قليلاً، وفعلوا كثيراً.

لقد أثّر الأدب الفرنسي فيَّ تأثيراً تربوياً عميقاً حقيقياً ـ ستندال، بلزاك، فلوبير، وانصح الكتاب الشباب "المبتدئين" بقراءتهم. وفي الحقيقة، أن هؤلاء الفنانين عظماء. والأدب الروسي لا يمتلك بعد فنانين كهؤلاء. لقد قرأتهم باللغة الروسية، وهذا لم يمنعني من أن أحس بقوة فن الفرنسيين. فبعد قراءتي لكثير من الروايات، وبعد قراءتي ماين ـ ريد، وكوبير، غوستاف إيمارو بنسون ديوتيرايل، فقد أيقظت قصص الفنانين العظماء هؤلاء، في نفسي انطباعات عجيبة.

أتذكر حين قرأت "القلب البسيط" لفلوبير، في عصر أحد الأعياد. يومها تسللتُ إلى سطح العنبر، مختبئاً عن عيون الناس المبتهجين بالعيد. وانغمست بالقصة، وكنت كالأعمى والأصم، فالمرأة التي كانت أمامي في القصة، حجبت عني ضجة العيد الربيعي، هذه المرأة العادية جداً، الطباخة، لم تقم بأية مآثر بطولية، ولا جرائم. وكان من الصعب علي أن أفهم، لماذا هذه الكلمات البسيطة التي أعرفها، والتي نسقها الكاتب في قصته، عن الحياة التعيسة، لتلك الطباخة، هزتني بهذا القدر؟ وفي هذا سر الحيلة، العسيرة المنال. ولقد فكرت وجهدت في التفكير،

عفوياً، وعشوائياً، محاولاً، أن أفهم صفحات الدنيا، كي أجد بين السطور حلاً لتلك الحيلة. لقد قرأت عشرات الكتب، التي وصفت الجرائم الدموية، والغامضة، ولكن، ها أنذا، أقرأ "حوادث إيطالية" ل ستندال، ومن جديد، لا أستطيع، أن أفهم كيف تم صنع هذا؟ فالكاتب، يصنف أناساً قساة، ومنتقمين، قتلة، وأنا أقرأ قصصه باللهفة نفسها "عيشة القديسين" أو اسمع "حلم مريم" وحكايتها عن "مسيرة آلام" الناس إلى الجحيم. كما ودهشت تماماً، عندما قرأت في رواية بلزاك "الجلد المسحور" تلك الصفحات، التي يصف فيها وليمة صاحب المصرف، التي شارك فيها عشرات الناس، وتعالت أصواتهم، مرتفعة، لتشكل ضجة فوضوية، وكأني أسمعها الآن، والمهم في ذلك، أني كنت أسمع، وأرى كيف يتحدثون، أرى عيون الناس وابتساماتهم وحركاتهم. مع أن بلزاك لم يصف وجوه ضيوف صاحب المصرف وقاماتهم.

وعموماً، إن فن رسم الناس بالكلمات، فن يجعل كلامهم حياً ومسموعاً وأن جودة الصنعة، وإبداع الكلمة، عند بلزاك، والفرنسيين أدهشني دائماً. ولكأنما، كُتب

بلـزاك قـد رُسمـت بطـلاء زيـتي، وعنـدما رأيـت لأول مـرة، لوحـات روبنـسن، تـذكرت بلـزاك حـالاً، وعنـدما قـرأت دوستويفسكي بشغف حتى الوله، اعتقدت، أنه مدين لهذا العبقـري، الروائـي العظـيم. وأعجبـتني أيـضاً كتـب غونكورف الواضحة، وكذلك رسم زولا. أما روايات هيجو فلم تستهوني، حتى رواية "العام الثالث والتسعين" قرأتها بلا مبـالاة. ولقـد أدركـت سـبب اللامبـالاة هـذه، بعـدما قـرأت روايـة أنـاتولي فـرانس "عطـش الآلهـة". أمـا روايـات سـتندال، فقـد قرأتهـا، بعـدما تعلمـت أن أمقـت أشـياء كـثيرة، كالكلام الهادئ، والابتسامات الخبيثة التي ملؤها الشك. كل هذا أثار مقتي.

من كل ما قلت عن الكتب، أخلص إلى القول، إنني تعلمت الكتابة لدى الفرنسيين. ولقد كان ذلك مصادفة محضة، وهذا لم يكن سيئاً. ولهذا السبب أنصح بإلحاح، الكتاب الشباب، أن يتعلموا اللغة الفرنسية كي يتمكنوا من قراءة الكتّاب العظماء، بلغتهم الأصلية ويتعلموا منهم فن الكلمة.

الأدب الروسي "الكبير": غوغُل، تولستوي، تورغينف، غانشاروف، ودوستويفسكي وليسكوف. فقد قرأته متأخراً جداً. ولقد أثّر ليسكوف فيّ تأثيراً عظيماً، دون أدنى شك؛ بمعارفه الواسعة، ولغته الفنية. إنه كاتب ممتاز وعليم بالمجتمع الروسي، ولم تقوّم بعد، خدماته في أدبنا. ولقد قال تشيخوف أنه مدين لهذا الكاتب، وكذلك ريميزوف. إني أشير إلى هذه المؤثرات والعلاقات المتبادلة كي أعيد القول: من الضروري معرفة تاريخ تطور الأدب الأجنبي والروسي.

عندما بلغت العشرين، بدأت أفهم ما رأيت، وما سمعت، وما عشت، حتى كان من الضروري أن أحدث الناس عن تلك الأشياء، ولقد خيل إلي أني أعرف وأحس بأشياء لا يعرفها الآخرون. وهذا حيّرني وأقلقني. وحتى عندما قرأت كبار الكتاب، مثل تورغنيف، كنت أتساءل، هل بوسعي، أن أحدّث الناس عن أبطال "مذكرات صياد" بشكل مغاير لما كتبه تورغينف. في هذه الأعوام، عدوني راوياً (حكاءً) ممتازاً، ولقد أصغى إلي باهتمام وانتباه كبيرين الحمالون، والخبازون، و"المتشردون"

والنجارون، وعمال سكك الحديد و"الجوالون"، وعموماً، كل الناس الذين عشت بينهم. كنت أحدثهم عن الكتب التي قرأتها، واكتشفت أني كنت أحدثهم بشكل غير دقيق عن هذه الكتب، وأشوهها، وأضيف إليها من مخيلتي، ومن تجربتي الشخصية، حدث هذا، لأن وقائع الحياة والأدب امتزجا عندي في وحدة كلية. فالكتاب ـ ظاهرة، من ظواهر الحياة، كالإنسان، وهو (أي الكتاب) حقيقة حية ناطقة، وهو أصغر من غيره من "الأشياء" الأخرى، التي يصنعها الإنسان.

سمعني المثقفون، ونصحوني:

ـ اكتب! جرّب أن تكتب!

كثيراً ما كنت أشعر، وكأنني سكران تماماً، وكنت أعاني نوبات الثرثرة، في الكلام عن الأدب، وذلك من رغبتي في التحدث عن كل ما يزعجني ويفرحني أردت الكلام من أجل أن "أفرّغ شحناتي". وعشت لحظات موجعة، من جراء نوبات هيستيرية، إذ كنت أحس، أنه قد وقف "حجر في بلعومي"، وأريد أن أزعق، إن أناتولي ـ عامل تركيب الزجاج، صديقي وإنه شاب موهوب، وإذا لم تقدم

لـه المـساعدة، فإنـه سـيموت. وإن العـاهرة تيريـز، ليـست عـاهرة، بـل هـي إنـسان جيـد، ولـيس عـدلاً، أن الطـلاب يـستغلونها لهـذا الغـرض المـشين، وهـم لا يـرون ذلـك، كمـا أنهم لا يرون أن الداية العجوز البائسة، هـي أفضل وأذكـى من القابلة الشابة ياكوفلفا.

كتبـت شـعراً عـن أنـاتولي وتيريـز سـراً وخفيـة عـن صديقي الحميم الطالب غوركي بلنتييف، وكتبت أن الثلج يـذوب في الربيـع، لـيس مـن أجـل أن يجـرف ميـاه الـشوارع القذرة إلى الأقبية، حيث يعمل الخبـازون، وأن الفولغـا ـ نهـر جميـل، وأن كـوزين هـو الخـائن يهـوذا، وأن الحيـاة ـ هـي قذارة فظيعة، مليئة بالضجر، وقاتلة للروح.

كتبت الشعر بسهولة، لكني رأيت أن أشعاري رديئة حتى القبح. واحتقرت نفسي لعدم مقدرتي، وعدم موهبتي في كتابـة الـشعر.. قـرأت أشـعار بوشـكين وليرمونتـوف ونيكراسوف، وكنت أحس جيداً، أني لا أشبه أحداً من هؤلاء الشعراء. أما النثر، فلم أقرر كتابته، لأنه خيل إلي، أن كتابة النثر، أصعب من كتابة الشعر، وأنه يتطلب نظرة صـائبة حـادة، وأن الموهبـة في كتابـة النثـر مرصوصـة،

ومنسقة ومنسجمة، بشكل غير عادي، ولكن مع ذلك، صرت أجرب كتابة النثر غير أني اخترت أسلوب النثر "المقفى" مكتشفاً بذلك أسلوبي البسيط. ولكن محاولاتي الكتابية تلك، جعلتني كئيباً ومضحكاً. كتبت قصيدة "كبيرة" بالنثر "المقفى" ـ "**أغنية البلوطة القديمة**". فشطب كورلينكو عشرات الكلمات منها، حتى وصل إلى جذور هذا النوع من الشجر. وكنت قد ضمنت تلك القصيدة أفكاري حول مقالة "تعاقب الحياة" التي نُشرت إن لم أخطئ، في المجلة العلمية "المعرفة".

تحدثت المقالة عن **نظرية الارتقاء**، وبقي منها في ذاكرتي، جملة واحدة فقط: "**جئت إلى هذا العالم كي لا أوافق**". وأعتقد أني لم أوافق على نظرية الارتقاء.

إلا أن كورلينكو، لم "يشفني" من محاولاتي في كتابة النثر المقفى، وبعد مضي خمسة أعوام، مدح قصتي "الجد أرخيب"، وقال عبثاً إني ضمّنت القصة "شيئاً يشبه الشعر". عندها لم أثق بكلامه. ولكن، في البيت عدت إلى القصة، فتأكدت بمرارة، أن صفحة كاملة سودتها، في وصف المطر في السهوب، وقد كتبتها بهذا النثر المقفى

الملعون الذي تبعني طويلاً بشكل غير ملحوظ، وتسلل إلى قصصي، وكان في غير مكانه. كنت أبدأ قصصي بعبارات غنائية، هكذا، مثلاً: "**مرت أشعة القمر من خلال غصون شجرة المشمش**" كنت أشعر بالعيب، بعد أن تنشر. وعموماً، حاولت أن أكتب بشكل "جميل": "**السكير المتكئ على عمود المصباح الكهربائي، نظر باسماً إلى ظله الذي يرتجف**". والليل حسب كلماتي، كان هادئاً ومقمراً، وفي مثل تلك الليالي لم ينيروا المصابيح الكهربائية. والظل لا يتحرك. وإذا لم تكن ثمة ريح، فالنار تشتعل بهدوء. و"وصف" كهذا و(فلتات) من هذا النوع وجدت تقريباً من كل قصة من قصصي. ووبخت نفسي بشدة وحاسبتها على ذلك. "**ضحك البحر**" ـ كتبت ذلك، واعتقدت طويلاً، أن هذا جيد. **فسعياً وراء جمالية العبارة، كنت دائماً اقترف "ذنوباً" بحق دقة الوصف**، ولم أضع الأشياء في مكانها، ولم أنوّر الناس بشكل أمين. "أما وضعية الفرن، عندك فليست صحيحة". كانت تلك هي ملاحظة ليف تولستوي، عندما تحدث عن قصتي "ست وعشرون وواحدة". ولقد تبين

أن النار في الفرن المنحرف الزاوية، لا تقدم للعمال النور الكافي، كما هو عليه الوصف عندي.

تلك كانت أخطاء صغيرة، لكنها تحمل مغزى كبيراً، **لأنها تخرق حقيقة الفن** وعلى كل حال من الصعب جداً إيجاد الكلمات الدقيقة، ووضعها في مكانها، وفي الوقت نفسه لم تكن قد قيلت من قبل الكثيرين "بحيث تكون الكلمات مطابقة بإحكام للأفكار المطروحة". فإن تصور الكلمات لوحة حيَّة، وترسم الصفات الدقيقة للشخصيات،وتتثبت بسرعة في ذاكرة القارئ و"تزين" الناس، هذا أمر، وأن يكون الوصف "متناغماً حياً، بحيث يتمنى المرء أن يمس بيده ما هو مصوراً، كما كنت أتمنى أن ألمس أبطال "الحرب والسلم" عند تولستوي فإنه أمر آخر.

كنت بحاجة لأن أصف المظهر الخارجي لبلدة تقع وسط روسيا، ببضع كلمات، وكان ذلك يتطلب مني ثلاث ساعات حتى يسعفني الحظ، بانتقاء الكلمات ووضعها في مكانها المناسب: "في وسط السهل المتموج المقسوم بدروب موحلة تقع بلدة أوركوف المبرقشة التي تشبه علبة مزينة على كف كبيرة مجهدة".

خيل إلي، أني كتبت هذا بشكل صحيح وجيد، وعندما نشرت القصة، رأيت أن ما كتبته، يشبه الكعكة المنقوشة، أو علبة شوكولاته جميلة.

وعلى العموم، يجب استخدام الكلمة بدقة متناهية، وجدية، هاكم مثالاً، من مجال ثان: لقد قيل: "**الدين ـ أفيون**". ولكن الأطباء، يعطون الأفيون للمرضى، كمادة مخدرة، ومخففة للألم. وهذا يعني ـ أن الأفيون مفيد للإنسان، ولكن إذا استعملوا الأفيون للتدخين، كالتبغ، فإن الأفيون يميت الإنسان. والكثيرون، لا يعرفون أن الأفيون هو سم قاتل، ومضر أكثر من الفودكا.

إن عدم نجاحي، جعلني أتذكر دائماً كلمات الشاعر الحزينة: "**ليس في العالم ألم، أقوى من ألم الكلمة**".

وحول هذا الموضوع، تحدث بشكل أفضل مني، غورتفليد في كتابه "أوجاع الكلمة" الذي صدر عام 1927. إنه لكتاب جيد جداً، وأنّبه "زملاء القلم المبتدئين" إلى قراءته. "باردةً، بائسةً وشحيحة هي لغتنا"، أعتقد أنه قالها (نادسون)، وندرة هم الشعراء الذين اشتكوا من "بؤس" اللغة. واعتقد أن الشكوى من "بؤس اللغة" ليست شكوى

روسية، بل هي شكوى عالمية، والذي يدعو إلى هذه الشكاوي أن هنالك مشاعر وأفكار لا يمكن أن توصف بالكلمات. عن هذا بالذات، يتحدث بشكل رائع كتاب غورنفيلد. ولكن إذا ما استبدلنا "لا يوصف بالكلمات" نجد أن اللغة الروسية غنية، وتغنى دائماً، وباستمرار. ولكي نتأكد من غنى وسرعة نمو اللغة، يستأهل الأمر أن نقارن احتياطي الكلمات لكل من غوغل وتشيخوف، وتورغينف وبونين ودوستيفسكي، ولنقل ليونيد ليونوف. والأخير، كان قد أعلن في الصحافة، أنه يستمد من دوستويفسكي ومن تولستوي. وأن تأثره بالكاتبين، لا يشهد على أهمية الكاتب الشاب وحسب، بل ويكشف عن موهبته أيضاً. فلقد أظهر في رواية (اللص) بشكل لا يقبل الجدل، إن فن لغته مدهش. ولقد أدخل الكثير من الكلمات الدقيقة السديدة إلى اللغة. هذا، دون أن نتحدث عن بناء روايته المدهشة، بتعقيده وصعوبته. وأعتقد، أن ليونوف، إنسان أصيل، وله "أغانيه الخاصة"، وقد بدأ بغنائها، ولا يستطيع أن يعيقه دوستويفسكي، ولا أحد آخر. ومن المناسب، أن نذّكر، أن اللغة لا تصنع عبثاً.

وتقسم اللغة، إلى أدبية وشعبية، ونقصد بذلك، لغة مصقولة. أي لغة مبدعي الكلمة. وأول من فهم هذا بشكل رائع، هو **بوشكين، وهو أول من بيّن كيفية استخدام لغة الشعب، وكيف يتم صقلها**.

فالفنان ـ الذي يحس بوطنه، بطبقته، هو عين وأذن وقلب لهذا الوطن. وهو ـ زمانه. وعليه أن يعرف الكثير، فكلما عرف الماضي بشكل أفضل، كان الحاضر، واضحاً له ومفهوماً. وهذا يجعله يحس بعمق ثورة زماننا، بجلالة، وجسامة أهدافها ومهامها. ومن الضروري، معرفة تاريخ الشعب، ومن الضروري أيضاً، معرفة أفكاره الاجتماعية والسياسية. فلقد برهن العلماء ومؤرخو الثقافة والاثنوغرافيون، أن هذه الأفكار، تنداح في الحكايات، والأساطير، والأقوال المأثورة، والأمثال الشعبية. وتعبر عن أفكار الجماهير الشعبية بشكل عام. وإن الأمثال الشعبية، والأقوال المأثورة مفيدة، بشكل خاص للكتّاب المبتدئين، ليس لأنها تعلم اقتصاد الكلمة، واختصار القول، والإيجاز في العبارة، هاكم لماذا: إن الأكثرية الساحقة، من سكان بلاد السوفييت ـ من الفلاحين، ومن هذه الطينة، ولد

العمال، والبرجوازيون، والتجار، والقساوسة، والموظفون، والنبلاء، والعلماء، والفنانون. فالتفكير الفلاحي نشأ ورُبي في الكنيسة الحكومية. ولقد بثت تعاليم الكنيسة هذه منذ زمن بعيد، التفكير بشكل جاهز وجامد.

عندما قرأت كتب "المحافظين" وكتب "المدافعين عن نظام الاستبداد" لم أجد في تلك الكتب جديداً، لأن في كل صفحة، كررت من قبلها، ولكن بشكل مقلوب وكل هذا عرفته منذ الطفولة، وإنه لمن الواضح، أن حكمة المحافظين ـ ليونوف وبوبيدونتسف وغيرهما، منغمسة في "حكمة الشعب" التي سيطرت عليها الكنيسة. ومن البديهي، أن هنالك أقوالاً مأثورة، وأمثلة شعبية كثيرة، مغايرة تماماً لما ذكرناه.

وعلى كل حال، تشكل الأمثال والأقوال المأثورة، مجازياً، كامل الحياة الاجتماعية والتاريخية للشعب الكادح. كما الأصابع في الكف. لقد تعلمت الشيء الكثير من الأمثال الشعبية، وبكلام آخر، من أفكار الأقوال المأثورة. أتذكر سولداتوف وهو كنّاس، يكنس

الشوارع. وذات يوم، كانت مكنسته جديدة، وغير ملوثة، فنظر إلي، وغمز بعينيه فرحاً وقال:

"المكنسة جيدة، والأوساخ لا يمكن كنسها تماماً. أنا أنظفها والجيران يأتون بها".

فهمت حالاً، الكناس، قال الصدق، حتى الجيران، ولو كنسوا أمام بيوتهم، فالريح ستحمل الأوساخ من شوارع أخرى، وإذا ما نظفت كل شوارع المدينة، فإن الغبار سيأتي من الحقل، والطرق، ومن مدن أخرى، فمن الضروري، أن تنظف أمام بيتك. ولكي تكون النظافة أعم واشمل، إذا شملت الشارع كله والمدينة كلها، والأرض كلها.

هكذا يمكن قلب المثل الشعبي، وها هو ذا مثال، كيف ينشأ: في مدينة "نيجني نوفغورد" انتشر وباء الكوليرا. فأشاع برجوازي ضيق الأفق، أن الدكتور يميت المرضى، فأمر المحافظ بارانوف باعتقاله، وجعله عاملاً، في مكن معالجة المصابين بالكوليرا، وبعد مضي فترة زمنية شكر البرجوازيُ المحافظ على هذا الدرس، فأجابه بارانوف: "اغمس رأسك في الحقيقة ـ تقلع عن الكذب".

كان بارانوف فظاً، ولكن ليس غبياً، وبظني، أنه استطاع أن يقول تلك الكلمات. وبالمناسبة، سيان، من قالها. وهكذا، على مثل تلك الأفكار الحيّة، تعلمت التفكير والكتابة. لقد وجدت أفكار الزبالين، والمحامين، وكل أصناف الناس الآخرين "السابقين" وغيرهم، في الكتب، وبكلمات أخرى، إن وقائع الحياة والأدب، متبادلة وتكمل بعضها بعضاً. أما كيف يصنع الكتاب "النماذج" والطبائع، فلقد تكلمت أعلاه ولكن يمكن أن يكون مفيداً أن أجرب مثلين آخرين: "فاوست" لغوته، واحدة من أروع ثورات الإبداع الفني، التي هي "ابتكار" أو فكرة أو الأصح، "فنتازيا" مجسدة، بأفكار وصور فنية. لقد قرأت "فاوست"، عندما كان عمري عشرين عاماً. وبعد فترة وجيزة، عرفت أنه منذ مئتي عام قبل ظهور كتاب الألماني "غوته" و"فاوست"، كتب الإنكليزي كريستوفر مارلو، وأن لـ "بوتشني" البولوني، رواية "بان تفاردوفسكي" هي أيضاً فاوست. مثلها مثل رواية الفرنسي بول موسيه "الباحث عن السعادة"، وأن أساس كل الكتب، التي تحدثت عن "فاوست" مستمد من الحكاية الشعبية ـ القروسطية عن أن الإنسان الذي كان متعطشاً للسعادة الشخصية، وللسيطرة

على الطبيعة الغامضة، وعلى الناس، قد باع روحه للشيطان. نمت هذه الفكرة، من مراقبة العلماء "الكيميائيين" في القرون الوسطى، للحياة، وعملهم من أجل صنع الذهب، وإكسير الحياة، مانع الموت ، وبين هؤلاء وجد حالمون جيدون، و"متعصبون للفكر"، ووجد أيضاً منافقون. تلك كانت بعض الجهود العقيمة لشخصيات نادرة، في تحقيق "السلطة العليا"، وكانت سخرية في تاريخ مغامرات القرون الوسطى للدكتور فاوست، الذي لم يسعفه الشيطان في تحقيق معارفه وخلوده. وإلى جانب شخصية فاوست المنحوس، كانت ثمة شخصية أخرى، معروفة لكل الشعوب: في إيطاليا ـ هذا بولتشينللو، في إنكلترا ـ بونتش، في تركيا ـ كارابيت، وعندنا ـ بيتروشكا. هذا البطل الذي لا يقهر ولا يغلب، إنه البطل الشعبي في كوميديا الأطفال، فهو ينتصر على الجميع، على الشرطة، على القساوسة، وحتى على الشيطان والموت، وهو الوحيد الذي يبقى حياً خالداً. هذا المثالان يؤكدان، ما قيل أعلاه: الإبداعات "مجهولة المؤلفين"، أي إبداعات أناس لا نعرفهم، فهي تخضع أيضاً، لقانون التجريد، وتضخيم الصفات والطباع لهذه المجموعة من الناس أو تلك في المجتمع، أو

تخصيص وتعميم هذه الصفات لمجموعة واحدة من هذه المجموعات. فخضوع الفنان الصارم لهذه القوانين، يساعده، على صنع "النماذج". هكذا صنع شارل ديكوستير "تيل أولينشبيغل" ورومان رولان - "كول بريونون" والفونيس دوديه ـ "تارتان". إن تصوير بورتريهات "نموذجية" واضحة جداً للناس، يمكن فقط في شروط تطور المراقبة والقدرة على التصوير، وإيجاد التشابه، ورؤية الفوارق وبشرط: **تعلّم، تعلّم** ثم **تعلّم**. وفي المكان الذي تختفي منه المعارف الدقيقة، تسود فيه وتنشط الأحاجي والتخمينات. تسود فيه وتنشط الأحاجي والتخمينات. وفي كل عشرة تخمينات تسعة أخطاء.

لا أعد نفسي فناناً، لديه الموهبة في صنع الطباع والنماذج الفنية التي تكون ذات قيمة كبيرة، من وزن نماذج وطباع، كأبلوموف، ورودين، وبازاروف.. الخ..

ولكن من أجل كتابة "فوماغورديف" اضطررت أن أرى عشرات الأبناء غير القانعين بحياة آبائهم وعملهم. لقد أحسوا بكآبة هذه الحياة التي تسير على وتيرة واحدة، "الحياة الفقيرة المرهقة" والتي لا نفع فيها. من هؤلاء، كان

(فوما)، هؤلاء الذين يرفضون الحياة المملة، والضجر المذل، والنـاس المـستغرقين في الـتفكير، حيـث خـرج الـسكارى والأوباش و"حارقو الحياة" من جهة، وأمـا مـن الجهـة الثانيـة، فقـد خـرج "الغربـان البـيض" أمثـال، سـافا مـاروزوف، الأداة الـتي قـدمت "الـشرارة" اللينينيـة، مثـل ميـشكوف ــ عامـل الباخرة، والعامل غونتشاروف.. والمسكوفي شميت وكثيرون آخــرون.. ومــن هنــا، ظهــر رجــال الثقافــة مثــل ميليــوتين وموسكوفيون آخرون، وكذلك، كثير من تجار الأريـاف الـذين عملـوا في مجـال العلـم والفـن الخ.. فـالأدب الروحـي لفوماغورديف، مياكين، صُنع من الصفات الصغيرة من "الأمثـال". وأنـا لم أخطـئ: بعـد عـام 1905 ــ وبعـد أن بلّـط العمــال والفلاحــون للمايــاكيين الطريــق إلى الــسلطة، بأجـسادهم، لعـب المايـاكيون، كمـا هـو معـروف، دوراً كـبيراً ضـد الطبقـة العاملـة، ومـازالوا حتـى اليـوم يحملـون بالعودة إلى الأعشاش القديمة.

***

يطرح عليّ الشباب، السؤال التالي: لماذا كتبت عن "المتشردين".

ـ بسبب العيش وسط البرجوازية الصغيرة، حيث لا ترى أمامك سوى الناس الذين لا هدف لهم، إلا الغش والاحتيال، ومص دم الإنسان من أجل الكوبيك، ومن الكوبيك تجمع الروبلات. وأنا، كذلك، مثل مراسلي، ذي التسعة عشر عاماً "الذي بكل صبره واحتماله" كره هذه الحياة المقيتة اللعينة، كالبعوض، للناس العاديين، الذين يشبهون بعضهم بعضاً كالقطع النقدية النحاسية.

بدا المتشردون، بالنسبة إلي "أناساً غير عاديين". و"غير العادي" فيهم، أنهم أناس "منخلعين عن طبقتهم" ـ منفصلون عنها، نابذون لها، فاقدون لصفات طبقتهم المميزة.

في قازان، في "معمل الزجاج" عاش عشرون رجلاً، غير متجانسين. "الطالب" رادلوف أو رادونوف، والعجوز جامع الخرق البالية، الذي قضى عشرة أعوام في الأعمال الشاقة. وفاسكا غراتشيك الخادم السابق للمحافظ اندريفسكي، والميكانيكي رودذيفيتش، وابن الكاهن، والبيطار دافيدوف. وهؤلاء القوم، كانوا مرضى، سكارى مدمنين،

عاشوا معاً. ولكن ليس من دون عراك، إلا أن شعور الرفاقية والود والتفاهم كان متطوراً بينهم. فكل ما يجمعونه من سرقة أو عمل، كانوا يتقاسمونه فيما بينهم بالتساوي، أو يأكلونه معاً. رأيت، أنهم يعيشون أسوأ من "الناس العاديين"، غير أنهم، يحسون بكرامتهم، أكثر من أولئك، وذلك لأنهم ليسوا جشعين، ولا يقتلون بعضهم بعضاً. ولا يجمعون الأموال. وقلة منهم استطاعت أن تقتصد شيئاً، إذ بقيت فيهم سمات "حب الملكية الذاتية" وحبهم بالحياة "الشريفة" وقد استطاعوا أن يدخروا، لأن فاسكا غراتشيك، كان لصاً ظريفاً، ومحظوظاً، فقد كان يحمل لهم غنائمه، ويعطيها "لأمين الصندوق"، أما رودزيفيتش الذي تصرف "بشؤون" المعمل، دون مراقبة، فكان إنساناً عديم الشخصية، وضعيف الإرادة.

أتذكر عدة مشاهدة من هذا النوع: سرق أحدهم، حذاء صيد جيد، وأتى به كي يبيعه ويشرب بثمنه، إلا أن رودزيفتش المريض، قال قبل عدة أيام، أنه يجب قص الحذاء، فنشرب بثمن الساقين والحذاء نعطيه "للطالب" فإنه يمشي بحذاء مهترئ مهلهل ـ تبرد رجلاه ـ فيموت، وهو إنسان طيب.

قصوا الحذاء، ولكن المحكوم بالأشغال الشاقة القديم، اقترح أن يخيط من الساقين خفين. واحد له، والثاني لرودزيفيتش. وهكذا، لم يبيعوا الحذاء ليشربوا بثمنه. وقد علل غراتشيك صداقته لهؤلاء الناس ومساعدته وكرمه لهم من جراء حبه لهذا "المتعلم".

قال لي ذات مرة: أنا أخ، أحب الإنسان المتعلم والنساء الحسان أكثر. كان إنساناً غريب الأطوار. ذا شعر أسود، ووجه رقيق جميل، وابتسامة لطيفة. كان مطرقاً دائماً التفكير، قليل الكلام، وفجأة ذات يوم، انفجر هائجاً مسعوراً، مسروراً. رقص، وشرب، وحكى عن نجاحاته، عانق الجميع، كالذي يذهب إلى الحرب، إلى الموت. وفي القبو التابع لخمّارة بوتوف، في شارع (زادنيا موكريا) حيث تقوم الآن محطة موسكو للقطارات، أطعم ثمانية أشخاص، عجزة بائسين، من بينهم كانت امرأة شابة مجنونة، ومعها طفل عمره عام واحد. وقد تحول إلى لص بهذا الشكل: حين كان خادم المحافظ، قضى ليلة مع عشيقته، وفي الصباح وفي الطريقة إلى البيت، وهو ما يزال مخموراً، سرق من بائعة الحليب، زجاجة حليب، وشرع بشربها. فاعتقلوه فوراً.

وصار يتعارك معهم، فحكم عليه القاضي كولونتايف القاسي الليبرالي الفظيع، بالسجن. وعندما أنهى فاسكا فترة سجنه المحكوم بها، تسلل إلى مكتب كولونتايف، فمزق له أوراقه وسرق ساعة المنبه، والمنظار ورجع إلى السجن من جديد. وأنا، تعرفت إليه، بعد عملية سرقة غير موفقة، في قرية (تاتارسكي) حيث قمنا بمراقبة العسس الليلي، فوضعت رجلي أمام أحدهم معرقلاً، كي يتمكن فاسكا من الهرب، يومها هربت معه. وكان بين المتشردين هؤلاء أناس غريبو الأطوار، لم أفهمهم جيداً، لكني ظفرت منهم بفوائد كثيرة. هؤلاء لم يتذمروا من الحياة. أما عن الحياة السعيدة. لضيقي الأفق "فكانوا يتحدثون بسخرية، وهزء، وذلك لم يكن حسداً، وليس لأنهم لا يستطيعون الحصول على ما يحصل أولئك عليه، بل وكأنه من اعتزازهم بكرامتهم، ومن إدراكهم، أنهم يعيشون (التعاسة) وفي الوقت نفسه، يدركون على الرغم من فقرهم، أنهم يعيشون أفضل من أولئك الذين يعيشون في (بحبوحة).

رأيت كوفالد (صاحب مأوى) "يأوي إليه المتشردون" أول مرة، والذي صورته في صورته في قصتي "الناس السابقين" في مكتب القاضي كولونتايف، ولقد أذهلتني ثقته، واعتزازه بنفسه. حيث وقف هذا الرجل الأشعث، يجيب عن أسئلة القاضي باحتقار. كذلك أدهشني المتشرد اللطيف المضحك من مدينة أوديسا، الذي قص لي حادثة، وكتبتها في قصة (تشلكاش)، وكنت قد التقيت به في المستشفى في مدينة نيقولا (خيرسون)، أتذكر جيداً، ابتسامته، التي كشفت عن أسنانه البيضاء الرائعة. الابتسامة التي كان ينهيها بقصته عن خيانة شاب كان قد رعاه وشَغَّله معه.

لقد ذكرني بأبطال دوماس الطيبين. وبعد خروجنا من المستشفى جلسنا في أحد منتزهات المدينة، وقدم لي بطيخاً أصفر، واقترح علي قائلاً: "أتعمل معي عملاً جيداً، فإني أتوسم الخير والفائدة فيك". وشكرته بامتنان لاقتراحه هذا، ولكني، في تلك الآونة، كنت أعرف، أنه يوجد عمل، أفضل بكثير من التهريب والسرقة.

بهذا يكمن اندفاعي نحو "المتشردين" هادفاً تصوير أولئك الناس "غير العاديين" وليس تصوير البرجوازيين الضحلين. هنا، تأثرت بالأدب الأجنبي، وخاصة، بالأدب الفرنسي، الذي كان واضحاً جلياً أكثر من الأدب الروسي. والحقيقة، أن المهم هنا، كانت الرغبة في تزيين "الحياة" المرهقة البائسة، التي تحدثت عنها الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً.

هذه الرغبة، كما قلت سابقاً، تسمى "بالرومانتيكية" ولقد اعتبر بعض النقاد، أن رومانيكيتي، انعكاس للفلسفة المثالية، وأعتقد أن، هذا ليس صحيحاً.

فالفلسفة المثالية، تعلّم، أن فوق الإنسان والحيوان، وفوق كل الأشياء، التي يبدعها الإنسان تسيطر "الفكرة المطلقة". من وجهة النظر هذه فإن قوة ـ ما فوقنا، توجد فكرة القيود ومحرك الاحتراق الداخلي، وفكرة أنبوبة باسيل للسل، وفكرة الأسلحة سريعة الإطلاق. فكرة الضفدع، والجرذان، وكل ما يدب على الأرض، وكل ما يصنعه الإنسان. وإنه لمن الواضح جداً، أنه من هنا تنبع حتمية الاعتراف بوجود خالق لكل هذه الأفكار، كائناً

مـن كـان. ولكـن لمـاذا يخلقـون النـسر، والقملـة، الفيـل والضفدع؟

بالنـسبة إلـي، أعتقـد بوجـود أفكـار خـارج الإنـسان. والإنـسان بالنـسبة إلـي، هـو المبـدع لكـل الأشـياء، ولكـل الأفكـار. أجـل هـو بالـذات ـ الخـالق العجيـب، ومـستقبلاً سيكون سلطان كل القوى الطبيعية ومروضها. إن أروع ما في عالمنا، هـو المصنوع بالعمل، باليد البشرية الخلاقة. وأن كل أفكارنا، تنبع وتظهر من العمل، وهـذا مـا يؤكـده لنـا تاريخ تطور الفن، والعلم والتكنولوجيا. فـالفكرة تـأتي بعـد الفعل (الواقعة ـ الحادثة). وأمام الإنسان "**أنحني**" لأنـي لا أرى في عالمنا، إلا ما يجسده عقله وما يصوره بفنه، وما يبتدعه...

وإذا كـان لابـد هنـا، مـن الحـديث عـن "القداسـة" فالقداسـة، هـي سـخط الإنـسان مـن نفـسه، ومحاولاتـه، ليكـون أفضل ممـا هـو عليـه. القداسـة هـي كـره الإنـسان لكل دناءات الحيـاة، المصنوعة مـن الإنسان ذاتـه. القداسـة هي رغبته في تحطيم الحسد والجشع، والجريمة، والمـرض، والحـرب، وكـل مـا هـو ضـار بالنـاس علـى وجـه الأرض. القداسة هي العمل.

عن الواقعية الاشتراكية

تتطلب تقنية العمل الأدبي ــ بالدرجة الأولى دراسة اللغة، التي هي المادة الأساسية لأي كتاب كان. وخاصة الكتابات الأدبية (النثرية). إن مفهوم كلمة "بِلْ ليتر" الفرنسية، يعني بالروسية ــ الكلمة الجميلة. ويفهم من كلمة الجمال هنا، هو تناغم مختلف المواد ــ وكذلك، الأصوات، والألوان، والكلمات، التي تضفي على ما يخلقه الإنسان ــ الفنان ــ شكلاً مؤثراً، في العاطفة والذهن، كالقوة، التي تثير الدهشة، والفخر، والفرح في الإنسان.

يتشكل جمال اللغة الأصيل، والذي يؤثر كالقوة، من دقة الكلمات ووضوحها، ونغمتها، التي بدورها تشكل اللوحات والطباع، وأفكار الكتب.

ويتطلب من الكاتب ــ الفنان ــ المعرفة الواسعة باحتياطي مفردات القاموس الغنية؛ والقدرة على اختيار المفردات الدقيقة، الواضحة، والقوية منه. فترتيب هذه

الكلمات، وتوزيعها الصحيح ـ حسب معانيها ـ بين النقاط يشكلان أفكاراً بشكل نموذجي، ويعطيان لوحات مضيئة، ويصنعان شخصيات حية من الناس، مقنعة، بحيث تجعل القارئ يرى ما يجسده الكاتب. ويجب على الأديب، أن يفهم، أنه **لا يكتب بالقلم فحسب**. بل ــ **يرسم بالكلمات**، لأنه يرسم لا كما الرسام، الذي يجسد الإنسان جامداً، بل عليه أن يصور الناس في حركتهم المستمرة. ويصور أفعالهم، ويصورهم في صدامهم الدائم مع بعضهم بضعاً. يصور أيضاً تصارع الطبقات، والمجموعات، والأفراد. ولكن، لا توجد حركة في العالم، لم تلق المقاومة، ومن هنا، فإن من الواضح، أنه بالإضافة إلى ضرورة إتقان اللغة بدقة، وتنمية القدرة على اختيار أبسط الكلمات، وأوضحها، وأبلغها جمالاً، والمصقولة جيداً، من اللغة الأدبية، والتي تعج ــ على الرغم من كمالها ــ بالكلمات الفارغة القبيحة، والمشوهة، بالإضافة إلى هذا، على الكاتب أن يعرف جيداً تاريخ الماضي، والظواهر الاجتماعية المعاصرة، وعليه أن يقوم عندئذ بدورين في الوقت نفسه: **دور الداية، ودور حفار القبور**. إن الكلمة الأخيرة، تبدو كئيبة، غير أنها في مكانها تماماً. فعلى

إرادة الكتاب الشباب ومقدرتهم يتوقف إفعام الأفكار البهيجة اليقظة عليها. ومن أجل ذلك، يجب أن نتذكر أن التاريخ، يدعو أدبنا الشاب إلى أن يقتل ويدفن كل ما هو ضار بالناس. ولو كانوا مازالوا يحبونه.

بداهة، انه لمن الأمور الساذجة والمضحكة، أن نتكلم عن "الحب" في المجتمع البرجوازي، الذي يَدّعي أنه أحد ركائز دعاياته الأخلاقية: "أحب أخاك أو جارك كما تحب نفسك". وهذا يعني أنه يؤكد حب الإنسان لنفسه، هو النموذج الأساسي المطلق للحب*. ومن المعروف جيدا أن المجتمع الطبقي، لا يمكن أن يُبنى، ولا يستمر في الوجود. إذا ما عمل بالوصية: "لا تسرق"، "لا تقتل".

لقد تعلم الطلائعيون في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، أن يفهموا، وقد فهموا حقيقة واضحة ومرعبة: أن مدنية البرجوازية، وحضارتها، مبنيتان على الصراع

---

* "إن حب الذات هو قضية إيجابية عن قضايا القانون الإلهي، ومن هذه النقطة المذكورة، يتطور حبنا للجار".

ـ بشير الكنيسة، العدد 45- 1909. مقالة عن حرق الجثث. المقال بدون توقيع، وربما كان للبروفسور يفسييف.

الوحشي للبرجوازية (الجيران ـ المتخمين) ضد الاشتراكية الساحقة (الجيران ـ الجائعين جداً). وإن لمن المستحيل، أن "تحب جارك" إذا كان عليك أن تسرقه. وإذا ما قاوم السرقة، فإنك ستقتله. ومنذ القديم، ومن خلال تطور "النظام" البرجوازي ولِد من بين الفقراء والجائعين، قطاع الطرق، في البر والبحر، وكذلك، ولد أيضاً دعاة الإنسانية أولئك الناس أشاروا للجائعين والمتخمين وأنصاف الشبعانين، أن يحدوا من الإسراف في حب ذواتهم.

لقد فضحت أفعال قطاع الطرق، بشكل واضح جداً الأساس الجوهري، الذي تقوم عليه حكومة الأغنياء، وظهرت عند الأغنياء ضرورة القضاء على قسم من قطاع الطرق، واستدعاء ـ القسم الآخر ـ إلى إدارة جهاز الحكم. ففي العصور السابقة، مثلاً، القرون الوسطى، اتخذ البرجوازيون، والتجار، قطاع الطرق قادة لهم، في صراعهم مع الحرفيين، والفلاحين: الدوقات، الدكتاتورات الطغاة. "أمراء الكنيسة" إلخ. ولقد استمرت هذه الطريقة في دفاع التجار عن أنفسهم ضد العمال، حتى أيامنا هذه، إذ يترأس الحكومات البرجوازية أصحاب المصارف، وصناع الأسلحة،

والمغامرون الشجعان، وغيرهم من "الخطرين" اجتماعياً. كما وأن دعاة الإنسانية، لم يتركوا التجار يعيشوا بهدوء، ولهذا السبب، فإن أولئك الناس الذين دعوا بإصرار، وأشاروا إلى الحد من الإسراف في حب الذات، فقد قضت عليهم البرجوازية، بمختلف الأساليب، حتى حرقهم أحياء، أو أغروهم، كما في أيامنا هذه بالخيانة، بتعيينهم بمناصب رفيعة، وعندما يصعد هؤلاء، يبدأون بالدفاع عن النظام البرجوازي، واستتباب الأمن فيه. كما نرى هذا في أعمال وزراء أوروبا الذين أتى بهم التجار من صفوف العمال الاشتراكيين السابقين.

بيد أن هذا كله، لا يؤدي بالبرجوازية إلى "التعاون السلمي بين الطبقات" ولا إلى ما تتمناه في بناء "العلاقات الطبقية المنسجمة"، العلاقات المنسجمة بمعنى، أن الأقلية المتخمة "الجيران" التي تمتلك: "السلطة السياسية" تفعل ما تريد. وأما الأكثرية "الجائعة ـ الجيران" فتخضع بمذلة لها، وتنفّذ ما يطلب إليها التجار المتخمون، في كل البلدان، هؤلاء اتخموا وتبلدوا من "مباهج" حياتهم الإجرامية. لقد كشف التاريخ باستمرار، فاضحاً بشكل هزلي،

المحظوظين، المكللين بالذهب. أمثال، رجال الأعمال ــ المغامرين، كالمشهور "ملك الثقاب" ايغار كوينغر، وأمثاله. فالشاهد الساطع عن طبيعة البرجوازية الهشة، غير المستقرة هو تكاثر عمليات الانتحار بينهم، غير أن أولئك الذين ينهون حياتهم بأنفسهم، لا يغيرون حال الباقين الأغبياء الذين يواصلون حياتهم ميكانيكيا، وبشكل أحمق وسافل. ولا يتورعون عن تنظيم مجزرة دموية جديدة والتي ربما تدّمر طبقة من الناس المحبين لأنفسهم، والذين سببوا مصائب الشعب العامل وآلامه وتعاسته.

فالأديب السوفييتي، سيسعف نفسه، إذا ما استوعب الواقع ــ ومواده. إذا تصور نفسه، متأرجحاً بين قوتين. الأولى، **تؤثر في العقل**، والثانية، **في العاطفة**، هكذا تماماً قد وضعه التاريخ، في عصر انهيار الرأسمالية، في مرحلة تتصاعد فيها المعارك الطبقية العالمية، المؤدية إلى حتمية انتصار الاشتراكية. ولكن على الرغم من الضجة العظيمة للمعارك، التي قد بدأت فإنها تُخمد بنقيق البرجوازيين الصغار، الذين اعتدوا منذ القديم أن يقوموا بالصفقات، والسرقات، حسب طبيعتهم.لأنهم غير مؤهلين للحرب.

ولكن عندما يبدأ الملاك الكبار الحرب ـ فإن الصغار ينقلبون لصوصاً، يسرقون القتلى، ويذبحون الجرحى ويسلبونهم. وبعد عملية كهذه، كثيراً ما ينقلب الصغار منهم كبارا. فمن المعروف أن الحروب البرجوازية "تخلق أبطالاً".

ولكنها بقدر أكبر تخلق محتالين. فعادة، يبقى الأبطال على أرض المعركة، ممزقين قطعاً. أما المحتالون الأكثر مهارة، فيقتحمون الحياة، كمشرعين في القانون، وأصحاب أملاك، وعندما يدركون المنفعة المرجوة من المذابح البشرية الجماعية، فإنهم من جديد يبدأون بتحضير أعمال مربحة جداً، إن ثمة ألهاً، اسمه ـ الربح، هو وحده الذي يعبده البرجوازيون، ويقدمون الملايين من العمال والفلاحين قرابيناً له.

تعيش البرجوازية الصغيرة، وحتى الكثير من العمال، الذين تسمموا بسبب جوارهم لها غارقين حتى آذانهم في المستنقع. ويتذمرون رافعين شكواهم خوفاً من البلل، ويختلط هذا التذمر الفارغ، مع النداءات البروليتارية الثورية البطولية ويخمدها، إنهم يشكون من الحياة السيئة في

المستنقع العفن الضيق. ويقومون بمحاولات جد قليلة، من أجل الخروج إلى مكان عال وجاف، في حين أن الكثيرين منهم لديهم كامل القناعة بأن المستنقع هو "الجنة الأرضية". ولكن، ومع أن تصوير "اللوحات" ضرورية للأديب ـ فإننا سنتحدث بشكل أقل عن التصوير.

يجب على كاتبنا السوفييتي، أن يعرف تماماً أن أكثرية معاصريه ـ هم مادة عمله ـ أولئك الناس الذين ربتهم العصور على الصراع الذي لا يرحم ضد بعضهم بعضاً، من أجل كسرة الخبز. وأن كل واحد من "جيرانه" تحرقه الرغبة إلى الثراء المادي، وهذه رغبة طبيعية ترتكز على حاجة بيولوجية، في الطعام والمسكن المريح.. إلخ. وهذه الحاجة الضرورية تشترك فيها الحيوانات والحشرات كالثعلب، والحدأة، والخلد، والعنكبوت، التي كلها تبني أعشاشاً وجحوراً، ولكن بعض الحيوانات المفترسة والطفيليات، تقتل أكثر مما تستطيع أن تلتهم. فعلى نزعة الناس إلى الثراء المادي والرفاه، مبنية كل حضارة البشرية، ولكن طفيلية البرجوازية التي تمتلك السلطة، والإمكانات، غير المحدودة لاستغلال العمال والفلاحين،

قـد خلقـت بحجـة إشـباع الحاجـات الـضرورية، الفـائض المغـري، والـذين أطلقـوا عليـه اسـم "الرفـاه". إن تـأثير هـذا الفائض المفسد اعترفت به البرجوازية نفسها: ففي جمهورية روما القديمة على سبيل المثال كانت ثمة قوانين ضد الترف والبذخ، ولقد ناضلت برجوازية سويسرا، وفرنسا، وألمانيا، ضـد البـذخ والـترف في العـصور الوسـطى. في حـين سـلبت البرجوازية عمل الآخرين، أكثر بكثير مما هو ضروري لسد متطلباتها. ولقد أصيبت بعدوى نزعة الربح الهين، لتكديس الأموال والمقتنيات. وأصبحت مسعورة، ونقلت هذه العدوى للعالم كله. ولقد ولّدت هذه العدوى لوحة بلهاء: في عواصـم أوروبـا، هنـاك شـوارع كاملـة مـن الحوانيـت، مخصصة للمصنوعات الذهبية، والأحجار الثمينة، ومختلف "أدوات الزينـة" التافهـة. والـتي تُهـدر لـصنعها طاقـات الطبقـة العاملة الغالية. والطبقة العاملة، نفسها تعيش جائعة مستلبة إمكانيـة تطـوير متطلباتهـا، مواهبهـا، وقـدراتها. إن نزعـة البرجوازيـة الـصغيرة، للتراكـم التافـه للممتلكـات، نقلـت الملكية الشخصية المريضة إلى الطبقة العاملة.

يجب ألا يُعتقد، أني ضد الرفاه، عموماً، كلا، إنني مع الرفاه للجميع، ولكنني ضد عبادة المال. فاصنع الأشياء على أفضل شكل تريده وكما تسمح الإمكانات، كي تكون متينة، وتوفر العمل الإضافي المهدور، ولكن لا تجعل من حذاء، أو طاولة، أو كتاب صنعته بنفسك "صنماً" فهذه "وصية" جيدة، وكم يكون جيداً، أن يستوعب عمالنا الشباب هذه الوصية.

إن الذين يعبدون الخيرات المادية، والحياة المريحة الهادئة (غير آبهين لأي أمر ومهما يكن) حتى في أيامنا هذه التي تنهار فيها الثقافة البرجوازية برمتها، وما يزالون يعتقدون بإمكانية وجود حياة مستقرة هادئة و"جميلة" واعتقد، أنه لا داعي للتكرار: إن أساس هذا الإيمان ـ هو حب الذات المغروس في الناس من الماضي، والذي عززته الكنيسة و"رجالها القديسين"، هؤلاء الذين يعدون نماذج حية لمحبي الذات، وفي الوقت نفسه، كارهي البشرية.

لقد أكدّ البرجوازي الحكيم الألماني، (عمانويل كانت) في الفلسفة الدينية، حب الذات وبكلام آخر

الفردية والذي يعد تفكيره تفكيراً ميكانيكياً، وغريباً، عن الحياة، كجثة الميت.

فهذا الإيمان، انصرم عصره، وهو ككل إيمان ـ أعمى ولكنه، يلجم الناس، ويلهمهم بقناعات زائفة فارغة، إن كل واحد منا هو "بداية العالم ونهايته"، لا بل هو "الفريد"، والأفضل، والأغلى، ففي هذا التقدير الذاتي، تتجلى بوضوح تأثير الملكية الخاصة، التي توحد القوى البدنية، والميكانيكية عند الناس، من أجل الهجوم والعدوان، ومن أجل استغلال أولئك الذين من غير حماية، أو حمايتهم ضعيفة، وهي ـ حسب الضرورة، و حسب "قانون" المنافسة، تبقي كل واحد منهم في وضعية الدفاع عن النفس، ضد "جاره" الذي هو صاحب ملكية وشريك في الرأي ذاته. والملكية الخاصة، توحِّد البرجوازية خارجياً، من أجل العدوان، وتمزقها داخلياً من أجل الدفاع عن النفس، ضد بعضهم بعضاً "كل واحد لنفسه". وهذا يخلق الحياة الذئبية، (كحياة الوحوش المفترسة). إن أخلاق أصحاب الملكية الخاصة، ينطبق عليها المثل القائل: **"الإنسان ذئب لأخيه الإنسان".**

إن الفردية الحيوانية ـ مرض، نقلت البرجوازية عدواه إلى العالم كله، والذي تموت هي به. كما نرى. ومن البداهة، أنه كلما كان موتها أسرع ـ كان ذلك أفضل للشعب الكادح على الأرض، فبقوته وإرادته يسّرع بهذا الموت.

إن البرجوازية الصغيرة بالنسبة للكاتب السوفييتي، هي موضوع صعب، خطر بسبب قوتها على العدوى، ونقل السم. فكاتبنا الشاب "المبتدئ" لم يلحظ البرجوازي في "قوته ومجده"، فهو يعرف البرجوازية الصغيرة، من خلال الكتب فقط. وهي معرفة سيئة، كذلك يعرف البرجوازية الأوروبية، التي تعيش حياة مريضة، مضطربة مختلة التوازن من خلال الكتب والصحف أيضاً. ففي بلاده، ما زال الكثيرون من أبناء البرجوازية الصغيرة الممزقة يعيشون، وهم يدعون بخبث، إنهم انقلبوا "حيوانات اجتماعية". ولقد تسللوا إلى صفوف الشيوعيين، وهم يدافعون عن "الأنا" بكل الخبث والنفاق والزيف الموروثين من الماضي. وهم بوعي أو من غير وعي، يخربّون، ويتقاعسون، ويلتمسون النفع لأنفسهم فقط، ومن وسطهم، يخرج المخربون،

والمضرون، والجواسيس، والخونة. لقد كتبوا عن حثالة الإنسانية ونفايتها، التي قُذفت بعيداً عن بلادنا، وما زالوا يكتبون ما فيه الكفاية، من الكتب. ولكن كل هذه الكتب تقريباً ليست جيدة. بل تصور العدو بشكل سطحي وضبابي، وترتكز على "مناسبات وحوادث معينة" تحمل طابع النكت. إذ لا يشعر المرء فيها "بالتاريخ" الضروري في المؤلفات الأدبية، وفي المهمة التربوية الاجتماعية، غير الرفيعة لهذه الكتب. ومن البديهي، خلال خمسة عشر عاماً، لن تخلق كتّاباً أمثال موليير، وبلزاك. أو، أن تربي مثل مؤلف "المفتش" أو مؤلف "السادة آل غولوفلوف". ولكن، في البلاد، خلال المدة نفسها، التي شيدت فيها الطبقة العاملة، مدناً جديدة، ومعامل عملاقة، وعمرتها، وأغنت الدولة بالثروات الطبيعية الغنية المكتشفة. في البلاد، حيث فرزت فيها الطبقة العاملة من بين صفوفها مئات المخترعين، وعشرات العلماء، إذ في كل عام يخرج إلى الحياة تقريباً، نصف مليون من الشباب، الذي حصل على شهادات التعليم العالي، في هذه البلاد يمكننا، أن نطالب الأدب بالكثير.

لقد حقق (الأدب الشاب)، في هذه البلاد إنجازات كبيرة، وستغدو إحاطته بالواقع أكثر شمولية، وبديهياً، نتمنى أن يصبح أكثر عمقاً. وسيصبح أعمق إذا ما تفهم الكتاب الشباب حاجاتهم لتلقي العلم، وتوسيع دائرة معارفهم، وتطوير قدراتهم ومواهبهم بدراسة تكنيك المهمة الثورية الهامة التي اختاروها.

وعند الخضوع لقوتي جذب التاريخ ــ الماضي البرجوازي، والمستقبل الاشتراكي، فإنه من الطبيعي، أن يتذبذب الناس: فالطبيعة الانفعالية، تشدهم للماضي، والعقلية تشدهم للمستقبل. إنهم يصخبون بأصوات عالية ـ ولكن الإنسان لا يحس بالثقة والطمأنينة، بأنهم قد اختاروا بشكل حازم، وحاسم، الطريق المحددة ومع أن التاريخ قد بيّنها، وأشار إليها بوضوح.

فالفردية المهترئة المفلسة، ما زالت تعيش وتنشط، وتظهر من خلال الطموح البرجوازي، ومن رغبتها في القفز إلى الأمام، إلى مركز بارز وفي العمل "الاستعراضي" غير المخلص، والمشوهه، للبروليتاريا، والذي يسيء إلى سمعتها.

وخاصة في العمل الذي يتطلب "مقاومة أقل". في الأدب ـ هذا الخط، هو خط انتقاد العلاقات المتعلقة بالماضي. فوجه الماضي القبيح، كما ذكرنا أعلاه، لا يعرفه الكتاب الشباب إلا بشكل نظري وسطحي. فليونة النقد الخفيف للماضي، يصرف الكتاب عن ضرورة تصوير ظواهر الحاضر الهامة.

إن القدرة عند الكتاب الشباب، لا تزال غير كافية، من أجل تعليم القارئ الحقد على الماضي، ولهذا السبب، لا يستطيعون أن يبعدوه عن ذلك الماضي، بقدر ما يذكرونه به على الدوام. ويبرزونه، ويؤكدونه، ويثبتونه في ذاكرة القارئ.

ولكي نفضح خساسة الماضي، وقذارته، ونسلّط الضوء عليه، ونفهمه تماماً، فإنه من الضروري، أن نطوّر قدرتنا، بحيث يصبح بوسعنا أن ننظر إليه من قمم إنجازات حاضرنا، وأهداف مستقبلنا العظيمة. فوجهة النظر هذه، يجب أن توقظ **روح الحماسة، والفخر، والفرح**، الذي يعطي أدبنا **نغمة جديدة**، ويكون **الاتجاه الجديد**، الضروري لنا ـ

ألا وهو ـ **الواقعية الاشتراكية**، والذي من البديهي ـ أن لا يخلق إلا من وقائع التجربة الاشتراكية.

نحن نعيش في وطن سعيد حيث يوجد من نحبهم ونحترمهم. ويجب أن ينطلق الحب عندنا، من مشاعر الإعجاب للإنسان أمام طاقته الإبداعية. ومن احترام الناس المتبادل لقوتهم الجماعية التي لا حدود لها والتي تخلق الأشكال الاشتراكية للحياة؛ من الحب للحزب الذي هو قائد الشعب العامل في الوطن كله، ومعلم البروليتاريا في العالم.

بلزاك

يسعدني دائماً، أن أتذكر إبداع بلزاك، كعابر السبيل الذي يسير في واد من غير ذي زرع، طويل وممل؛ وفجأة، يتذكر بقعة قريبة فيها ما فيها، من الجمال والخصب، والغنى، والقوة.

كان عمري ثلاثة عشر عاماً، عندما قرأت أول كتاب فرنسي. وكان ذلك الكتاب، هو كتاب إدمون غونكر "الأخوة زيمغانو". والكتاب، قصة مؤثرة، مثيرة للعواطف عن فنانين، حكمت عليهم الأقدار، حكماً مبرماً بالوحدة، والعيش في حلقة ضيقة شوهت أرواحهم، لمجرد الطرافة، وحب الاستطلاع.

هذا الكتاب الرائع، هزّني، واستصرخ مشاعري الإنسانية الحزينة، وألهمني إلى الأبد. وخلق عندي نزعة لحب كل الناس الذين يقدمون للعالم أغلى ما لديهم ـ أرواحهم.

حينئـذ، أيقـظ غـونكر عطـشي للتعـرف علـى الأدب الفرنـسي، الـذي كنـت قـد عرفـت عنـه قلـيلاً، وبـشكل متقطع، عن بلد الفرسان وبلد الأبطال. ورحت أسـأل معـارفي الطـلاب، عـن الكتـاب الفرنـسيين، وطلبـت إليهم أن يـأتون بكتب فرنسية مترجمة. وقيض لـي أن أهـضم مجلدات الأب دوماس الكثيرة وبونسون ويوتيررايللا، بواغوبيا، زاكونيه، غـابوريو، كاسـافيه دي ــ مـونتبين، وعـشرات المـؤلفين الآخرين، ومن بينهم وقع بين يدي مجلد صغير من مجلدات بلـزاك، وكـان ذلـك المجلـد، هـو روايتـه "**الجلد المسحور**". أذكـر بكـل جـلاء ووضـوح، المتعـة الـتي لا توصـف، عنـدما قرأتــه، وخاصــة، الــصفحات الــتي يــصف فيهــا دكــان (الأنتيكات) العتيقة ـ هذا الوصف، يبقى عندي، من أعظم نماذج النحت بالكلمات.. والمكان الآخر من هذا هو الحوار الذي أذهلني أيضاً بصنعته الفنية ـ هو الحوار في الوليمة، إذ استخدم بلزاك عبارات متقطعة لذاك الحوار، الذي دار حول المائدة راسماً الوجوه والطباع بشكل مثير ومنقطع النظير.

وصرت أبحث عن بلزاك. وكـان الكتـاب الثـاني الـذي قرأته لـه هـو (Pere goriot) (الأب غوريو). فهـذا الكتـاب جعلني انتصر بشكل نهائي، وشعرت بنفسي زمناً طويلاً،

أني راستينياك، الذي يهدد العالم، من أجل كرامة الإنسان المداسة، المهدورة، ومن أجل الأوجاع والآلام، التي تملأ صدور الناس. عشت في تلك الأيام، بشكل سيء جداً. ولكن، صحتي كانت جيدة ولهذا أصبحت رومانتيكياً. قرأت "الكوميديا الإنسانية"، عندما كان عمري عشرين عاما، ولقد وجه هذا الكتاب صفعة قوية جداً إلى رومانتيكيتي غير الناضجة، وأحسست بعبقرية بلزاك، وأحببته بحرارة، كما يحب المعلم والصديق.

بعد سنتين ـ ثلاث، ظهرت في روسيا ترجمة المؤلفات الكاملة لبلزاك. فقرأت كل مؤلفاته مرتين، وعندها، فهمت عظمة هذا الكتاب، وحجم موهبته الملحمية، التي سحرتني وفتنتني، وأدهشتني. فرحابة كتاباته، وقوة أفكاره، وجرأتها، وصدق كلمته، وموهبته، في رؤية المستقبل، قد تحققت في هذا العصر الراهن، وجعلت منه واحداً من أعظم المعلمين في العالم.

فشكسبير، وبلزاك، وتولستوي، بالنسبة إلى ثلاثة أعلام عظيمة، دفعوا الإنسانية إلى الأمام. فلولا بلزاك ما استطعت أن أفهم فرنسا، تلك البلاد التي سارت دائماً، وما

زالت تسير في مقدمة البشرية. والتي تصنع في هذا المجال، أو غيره أشكالاً جديدة للإبداع، وأشكالاً جديدة للحياة. إنها البلاد التي أحبها، والتي يحمل لها العار أصحاب المصارف، أولئك الذين اضطررت أن أتحدث عنهم، ذات مرة، إذ أثاروا غيظي ـ **فأعمال البرجوازية الفرنسية. المعادية للثقافة، المعادية للإنسانية**، أرادت أن تعرقل مسيرة **الشعب الروسي إلى الحرية** ـ ولكن، هذه الأعمال لم تعتم أبداً على تألق أسماء مثل هيجو وبلزاك، وفلوبير، الأبناء الحقيقيون لفرنسا، بلد الأعمال العظيمة، والأسماء العظيمة.

ليس بوسعي أن أصرف النظر عن هذا ولا أعرف، كم أنا مدين شخصياً لبلزاك، وأن تأثيره، بشكل عام في الأدب الروسي كبير. وهذا من غير شك، قد أقّر به وشهد عليه تولستوي، الذي سألني ذات مرة:

ـ لمن تقرأ أكثر من الآخرين؟

فذكرت له من أقرأ لهم. فقال:

ـ هذا حسن، لكن أقرأ للفرنسيين أكثر من الجميع. بلزاك، مثلاً، الذي تعلمت عليه الكتابة. اقرأ ستندال، فلوبير، وموباسان، إنهم يجيدون الكتابة. إن الإحساس

بالشكل الفني للكتابة عندهم، متطور جدا، وعندهم قدرة التركيز على المضمون، وفي صفهم يمكن أن تضع ديكنز فقط. ويمكن أن تضع تيكري، فلو أني لم أقرأ (شارترز بارسكايا) لستندال، ما استطعت كتابة لوحات "الحرب والسلم" بهذا أنهي رسالتي إليك.

بلزاك ـ إنه موضوع لا نهاية له، إنه طاقة خارقة بالنسبة إلي، ولهذا، فإن ذكراه تمتزج بحياتي، وبأيامها الصعبة وهذا يثير اضطرابي. وأود القول أيضاً، أن الكتاب لعب في حياتي، دور الأم، وأن كتب بلزاك عزيزة جداً على قلبي، وأعز عندي من الآخرين، وأكثر من ذلك، إني لأشعر دائماً بقوة عظيمة، وسرور كبير، في إبداعاته ذات المعارف القيمة، والرائعة الثمينة للحياة.

عن الفن

من المعروف والمسلم به، أن فن الكلمة، ولد في قلب العصور السحيقة. نتيجة أعمال الناس. وسبب ظهور هذا الفن، هو رغبة الناس بتنظيم تجاربهم العملية في أشكال فنية، بحيث تكون أسهل مثالاً للرسوخ في الذاكرة، وعن طريق "الأمثال" و"الأقوال المأثورة".

لقد تبع فن الكلمة العمل مباشرة. وفي هذه الكلمة، تفتحت بدايات العلوم، حول أساليب الصراع، والمعطيات الضارة، ومقاومة الطبيعة. ومن البديهي، أن فن الكلمة، كان يجب أن يظهر قبل قرون من ظهور الديانات البدائية، والبرهان على ذلك، أن الناس أعطوا الكلمة لبوساً سحرياً قوياً، مؤثراً في الوحوش المفترسة، وفي ظواهر الطبيعة.

ومناقشة هذا الأمر، من وجهة النظر المنطقية المستقيمة الشريفة، والتي تلهم العقل، تؤكد أن العمل هو معلم ومنظم لهذا العقل. ومن الحق أن نؤكد، أنه في تلك الحقبة

الزمنية التي تعلّم الناس فيها تقطيع الكلام إلى كلمات أعدّوا أنفسهم أكثر حكمة وعقلاً من الحيوانات.

العمل، النار، الكلام: هذه هي القوى التي بواسطتها استطاع الناس أن يبنوا الحضارة (الطبيعة الثانية). ولم يعد الكلام مصدراً للتفاهم بين الناس فقط، في المجتمع الضيق البدائي، بل وأيقظ فيهم الفخر، والفرح بنجاح أعمالهم، وانعكس أيضاً على إنتاجية عملهم.

إننا نحن مواطني الجمهوريات الاشتراكية، تزداد قناعتنا، يوماً بعد يوم، أنه كلما كان عملنا الحر مثمراً، كلما تطور الإنسان بشكل أسرع وأقوى.

يصور تاريخ الثقافة البرجوازي، حياة الناس البدائيين، على أنهم عاشوا في رعب وقهر مستمرين أمام الظواهر الغامضة وغير المفهومة، ويصور الإنسان مستغرقاً في تفكيره حول النار، والنوم، والموت، وهذا التأكيد يتطلب إعادة النظر، والتدقيق، كما كل البراهين البرجوازية حول سير تطور البشرية. فالحكايات والخرافات القديمة، لا تعكس رعب الإنسان أمام الطبيعة، بل بالعكس، تؤكد انتصار الإنسان عليها. وعن قوة الكلمة السحرية القادرة

على قهر مقاومة الشر، وظواهر الطبيعة بعزيمة العمل ومسيرته؛ فالزلازل، والطوفان، وكل الكوارث الطبيعية عموماً، لم تحصل يومياً، ولم يعانِ منها كل جيل. والحيوانات، لم تعرف، أن الإنسان يصطادها من أجل لحومها، ولم يعانِ "متوحشو" إفريقيا واستراليا، وزيلندا، الرعب في أثناء لقاءاتهم الأولى مع الأوربيين، بل تقدموا منهم بسلام وثقة.

ظهرت تراجيدية الحياة الاجتماعية، وشناعتها عندما انقسم الناس إلى سادة وعبيد. ولحظة الانقسام هذه، كانت لحظة ظهور الديانات. إن المنظرين، ورجال الدين، وناشري الدعاية، الذين يروجون الحياة التراجيدية وشناعتها، خدموا وساهموا بانسلاخ الأفراد عن الجماعة. وهم، في أيامنا هذه، ما زالوا مستمرين بنشر دعاياتهم، التي تبرز تقسيم الناس إلى سادة وعبيد، وإلى مذنبين ومؤمنين صالحين، وإلى ناس سيتعذبون بنار الجحيم أو سينعمون بملذات الجنة.

لم يستطع الناس أن يعيشوا دون أفراح. فقد عرفوا كيف يضحكون، وغنوا الأغاني المرحة، وأحبوا الرقص، ومن جراء فرحهم بنجاحات أعمالهم، أدخلوا الغناء إلى

طقوسهم الدينية، وكذلك الرقص واللعب، حتى كنيسة المسيح المتجهمة، القاسية، كانت مضطرة في أعيادها، على إدخال الأغاني...

لقد حمل الفن والفرح، خاصة إلى حياة العبيد الشاقة الصعبة. والعبيد بالذات، هم مبدعو الجمال الذي نراه على المزهريات والخزفيات، وذلك ما نستدل عليه بالزخارف الذهبية القديمة، ومن الأسلحة، والنحت، والمعابد المصرية القديمة والإغريق، والمكسيك، والبيرو، والهند، والصين، وكاتدرائيات أوروبا في القرون الوسطى، ومن السجاد الشرقي إلخ...

من الذي حوّل العمل اليومي الشاق المضني إلى فن.. في البداية، بيديه، وبعدها على الآلة؟ إن مؤسسي الفن، كانوا هم الفخارين، والحدادين، وعمال النسيج، والحائكين، والصاغة، والنجارين، وعمال البناء، والدهانين، والخياطين، والخياطات، والنقاشين على الخشب، والعظام، وعموماً، الحرفيون، والناس الذين صنعوا الأشياء بفنية، من أجل غبطة عيوننا، والتي تملأ المتاحف.

ما الذي دفع الناس إعطاء الأشياء العادية، النافعة (اللوازم البيتية) الموبيليا، الأواني، الأشكال الجميلة، ومختلف النقوش المذهبة؟ وماذا دفع الناس عموماً كي يتزينوا؟ إنها النزعة إلى صنع الشكل الأكمل. إنها نزعة بيولوجية. يكمن في أساسها رغبة الإنسان في أن يربي في ذاته الليونة، وقوة العضلات، وخفة الحركات، ورشاقتها، فهذه الرغبة بالتربية البدنية، مجسدة بوضوح في بلاد الإغريق القديمة، في فن النحت، بشكل منقطع النظير.

يعرف الناس، أن الصحة ترافق الإحساس بغبطة الحياة، وأن الناس العاملون على تغيير جوهر المادة، وظروف الحياة يحصلون على قمة المتعة والفرح. فرح المبدعين بالجديد وغير العادي.

ويحب الناس الأصوات المنتظمة موسيقياً، والألوان الواضحة، ويحب الناس أن يجعلوا ما حولهم أفضل، وأجمل، وأكمل مما هو عليه. فالفن يضع هدف المبالغة الفنية، من أجل الأفضل، ويبالغ بإظهار الأسوأ، وكل ما يضر الإنسان، ويشوه الإنسان، كي يوقظ الاشمئزاز فيهم، وكي تحرقهم الرغبة، للتخلص من كل عار الحياة

ورزائلها، التي تصنعها البرجوازية البشعة السافلة. في أساس الفن يكمن نضال "مع" أو "ضد". ولا يمكن أن يكون هنالك فن لا مبال، لأن الإنسان ليس آلة تصوير، وهو "يثبت" الواقع، أو يؤكده، أو يغيّره ويحطمه.

في عصر طفولة الحضارة، تسابق الناس، تسوقهم الرغبة، لتحسين أنفسهم، ونتيجة ذلك، انقسم المجتمع إلى طبقات، وأصبح العمل عبودياً، مقيداً، والإبداع، مادة للبيع والشراء. وانقلب التنافس الشريف إلى مزاحمة الصناع، ومنافستهم من جراء الصراع من أجل كسرة الخبز، والمنافسة، لزيادة، كمية الأشياء "للسادة" خفضت نوعية الأشياء. فالعمال صنعوا، الآلات البدائية الأولى من أجل أن يجعلوا أعمالهم أهين، ولزيادة أرباحهم أيضاً. ولكن الآلة بين أيدي صاحب العمل أصبحت عدواً للعمال، وفي أيدي العمال معاوناً له، فهي توفر جهده، ووقت عمله.

وهكذا عشنا إلى زمن، رأينا فيه: تطور التكنولوجيا في البلدان الرأسمالية، التي سببت العطالة للملايين، هذه العطالة التي ترعب البرجوازية الصغيرة في أوروبا، التي باتت تصرخ: "**فلتسقط التكنولوجيا، للوراء إلى العمل اليدوي**".

وهذا نداء لإيقاف نمو الحضارة، نداء للرجوع إلى أشكال العبودية في القرون الوسطى. هذا زعيق سكرة الموت للرأسمالية.

لقد وضعوا أمام إبداع الإنسان ـ العامل الحر، العراقيل الهائلة. ولكن دائماً، كان هنالك أناس عاشوا حتى أيامنا (دونكيشوتيون)، أولئك الذين لم تنطفئ الرغبة القديمة عندهم، بصنع الأشياء بأية طريقة جميلة، وغير عادية، أناس كهؤلاء، قليلو العدد. ولكني التقيت بعضهم في مناطقنا، أتذكرُ جيداً، أني صادفت أحدهم في أسفاري. إذ التقيته على باخرة بين (قازان) و(نيجني). كان مسافراً إلى معرض عموم روسيا عام، 1896 وكان صغيراً نحيلاً، أصلع، له عيون، كعيون الفأر، ويبدو غاضباً أصفر، كاليرقة. وله لحية كالكتان، يمشي بجزمة مهترئة في ممر الدرجة الثالثة، وينظر إلى المسافرين بحذر، وبصوت لا يكاد يسمع، كان يعرض عليهم:

ـ اشتروا لعبة! (دمية!)

كانت الدمية خشبية، من جذر شجر العرعر، والدمية كانت عبارة عن رجل على رأسه قبعة، يرتدي بنطالاً،

ويتكئ بكتفه على شجرة، ماسكاً بيديه عصا. وجهه ينتفخ شراً، يعض شفته السفلى بأسنانه، والفم منحرف. كان الوجه مصنوعاً بدقة، والجسم منحوت من وسطه فقط، وكأنه نبت في الشجرة. وجهه، يعبر عن لا مبالاته، وفي لا مبالاته هذه، واضحة دقّة عمل النحات، وذوقه، ومعرفته بتشريح جسم الإنسان. طلب ثمن هذه اللعبة (تمثال الرجل) روبلين. ولكن المسافرين عرضوا عليه (15 كوبيكاً) (قرشاً) وعشرين كوبيكاً. لكنه تابع سيره بصمت. وقال أحدهم في إثره:

ـ يتلهى بالتوافه هذا العجوز.

ـ ومنحوته بشكل رديء ـ أضاف أحد الركاب..

كان معي روبل ونصف، لكن ما أردت أن أزيد غبن العجوز. وسألته:

ـ قطعتها بنفسك؟ فاندهش وأجاب بسؤال:

ـ طبعا، ومن يكون غيري؟ ثم قال:

ـ لا أمس شيئاً ليس لي.

وذهب إلى مؤخرة السفينة، جلس في الزاوية، وسحب من الكيس جذراً، واستل من جيبه سكيناً حادة. فجلست بالقرب منه ورحت أحدثه، فأراني أربع دمى أخرى تمثل: رجلاً بطيناً، أصلع، وبلحية حوارية، حافياً وبقميص طويل من غير زنار. والرجل ينظر إلى الأعلى. راسماً إشارة الصليب، يده منكمشة على الكتف الأيسر، فاغراً فمه الأدرد، ثم أراني راهباً طويلاً، بأنف كبير، مضيقاً عينيه. وأراني أيضاً امرأة عجوزاً، مشعثة الشعر، تهدد بقبضتها شاباً سكيراً على رأسه قبعة من قبعات النبلاء. والتحف الخشبية الخمسة، تحمل ميزة واحدة، كانت جميعها مشوهة بإدهاش. سألته: لماذا تصنع الناس بشكل مضحك. وأنت معلم بارع. فنظر من زاوية عينه، وأجاب من غير حماس:

ـ أنا أنحت بشكل طبيعي، الناس الذين أعرفهم، ومنذ ثلاثة عشر عاماً، وأنا أصنع هذا، عمري سبع وخمسين سنة، ويحسبونني أحمق طبعاً. ولكن هذا، لا يزعجني، بالعكس، هذا لفائدتي. عندنا، لا يزعجونك، عندما تعيش أبله. ثم قال لي:

ـ بعض القطع الخشبية، أصنعها أسوأ مما هي عليه في الواقع، وبعضها أفضل مما هي عليه. الناس الطيبون، أصورهم بشكل أفضل وأجمل. والسيئون، لا أخاف من أن أصورهم، كما هم مشوهين.

كان يتكلم، وكأن لا رغبة له بالكلام، وكان ينظر إلي شزراً من تحت شعرات حاجبيه المنتصبة، وأخذ يقيسني بنظراته، ولكأنه يتأكد: هل أصغي إليه بانتباه؟ إذ شعرت أنه بحاجة لمن يستمع إليه.. وأنا، بسهولة، جعلته يحدثني عن الحياة الحزينة، المهانة، التعسة (لولد متروك). بدأ حياته معاون راعٍ، وبعدها خدم عسكرياً في سرية غير محاربة، ومن ثم خدم سنة ونصف، في كتيبة الانضباط. وبعدها، عمل قليلاً في ورشات النجارة.

ـ وبما أني أميل إلى مشاكسة الناس، لم أعطهم ظهري مطية لهم.

عموماً، هذه كانت حياة عادية لفنان وحيد، ولع بشيخوخته بالإبداع، الذي لم يجد من يقّيم له ذلك.

رأيت عدداً غير قليل من أناس كهؤلاء، وربما عززوا الثقة، بأن البروليتاريا، يمكن أن تقدم فنها، وثقافتها، مع

أنهـا لا زالـت تقـع في أسـر البرجوازيـة. فكـم مـن النـاس الموهـوبين، أضـاعوا مـواهبهم الأصلية، عبثـاً، ومجانـاً، وفي عمـل رخـيص ليجنـوا منـه قروشـاً قليلـة، ويكـون هـذا العمـل سبباً بإخماد العقل، من أجل البحـث بِضِعَة عـن كسرة خبـز. كـان أنـاس كهـؤلاء، بـين عمـال تـصنيع الخـشب، في (بـافولجي) وبـين قبائـل القفقـاز صـانعي الأسـلحة، وصـانعي الفضة والذهب، وبين عمال التطريز، والتوشية بالدانتيلا بين مئـات ألـوف العمـال والعـاملات الـذين أضـاعوا العمـر في الـصناعات الفنيـة، مـن أجـل تـزيين حيـاة كبـار وصـغار البرجـوازيين. فهـل كـان يمكـن أن نفكـر، أنـه مـن خـلال صـانعي الأيقونـات، الحرفـة المحافظـة، والأشـد محافظـة، في حقـل الفـن ــ الرسـم، الـذي يخـدم الكنيـسة، أن هـؤلاء الرسامين دفعوا هذه الحرفة إلى حرفة عصرية متميزة، والتي تخلق الإعجاب حتى في الناس الذين يتسلون ويمارسون الرسم.

لقـد سميـت الرسـم، فنـاً محافظـاً، لأن الرسـم، خـدم ويخدم مصالح الكنيسة واهتماماتها، وكذلك الحكايات المصوّرة والأخلاق الدينية، والدعاية التي تمجد صبر المسيح، وآلامـه وبطولاتـه. لقـد خـدم الرسـم، ويخـدم، في مـضاعفة

صـــور و(بورتريهـــات) القياصـــرة والجنـــرالات، وأصـــحاب المصارف، والنساء المغناجات، والتجار.

إن ثورة أوكتوبر التي نظمها، وقادها **حزب لينين**، عتَقتْ الطبقة العاملة والفلاحين من أسر الرأسماليين اللاإنساني، وأعطت كل جماهير الشغيلة حقوقها في العمل الحر. ولقد باتت مآثر هؤلاء الأبطال في أقل من عقدين بعد سقوط روسيا القيصرية، الجاهلة، الجائعة، الضعيفة، المهانة ـ روسيا الإقطاعيين، وأصحاب المعامل، وأصحاب المصارف، وانقلبت إلى بلد قوي، هو اتحاد الجمهوريات الشقيقة، إلى بلد تحقد عليه كل برجوازية العالم، وتبغضه، لكنها تحترمه، وتخاف منه.

وستظهر أكثر فأكثر، نتائج هذا الانتصار، انتصار ثورة البروليتاريا، التي يقودها الحزب، والعمل الدؤوب من قبل كافة طبقات الشعب في جمهوريات اتحاد بلاد السوفييت الاشتراكية، وبقوة هائلة تتكشف المواهب الجماعية لأطفالنا، ففي كل يوم يظهر مئات الموسيقيين الصغار، والطيارون الشراعيون، وأبطال صغار، والذين بجرأة كبيرة ينخرطون في النضال ضد الأعداء.

سيرغي يسينن

في العام السابع أو الثامن، وفي كابري، روى ستيفان جيرومسكي لي وللكاتب البلغاري بينكو تودوروف قصته عن صبي فلاح، وصل إلى مدينة **كراكوف**، وتاه فيها. وقد دار في شوارعها، مدة طويلة، ولم يستطع بأي شكل من الأشكال، أن يصل إلى تخوم حقله الرحب الذي اعتاده. وأخيراً، عندما استولى عليه شعور أن المدينة، لا تريد أن تطلق سراحه، ركع على ركبتيه، وصلّى، ومن ثم قذف بنفسه من على الجسر، في نهر "**فيسلا**"، آملاً، أن النهر سيحمله إلى الضفة الرحبة التي يريد. لم يتركوه يغرق. لكنه مات على أثر الصدمة.

هذه القصة البسيطة، ذكرتني بموت سيرغي يسنين....

رأيت يسنين أول مرة، في عام 1914. إذ التقيته، في مكان ما مع كليوف. وقد خيل إلي آنذاك، أنه صبي ابن 15 ـ 17 سنة، أجعد الشعر، أشقره، وكان يرتدي قميصاً

أزرق وجزمه، فذكرني بصور ساموكيتش سودوفسكي الأنيقة، التي صورت أطفال الإقطاعيين الذين كانوا متشابهين.

كان الليل، في ذلك الصيف خانقاً جداً. كنا ثلاثة، تمشينا في البداية، في شارع "بارسينا"، ومنه انعطفنا إلى جسر سيمونفسكي، توقفنا على الجسر، ننظر إلى المياه الداكنة السوداء. وما عدت أذكر عما تحدثنا. من المحتمل، أننا تحدثنا عن الحرب. التي كانت قد بدأت.

ولّد يسنين عندي انطباعات متواضعة، غير واضحة، صبي حائر مرتبك، تحس أنه هو نفسه لديه شعور بأن لا مكان له في بطرسبورغ الكبيرة. والغلمان النظيفون ــ كهؤلاء ــ سكان مدن، مثل: كالوغي، أريول، سيمبرسك، تامبوف، تراهم في حوانيت التجار، والباعة، وصناعاً عند النجارين، أو في فرق الرقص، وفي جوقات الغناء..

وبعد ذلك بزمن ليس قليلاً، وعندما قرأت أشعاره الرحبة، الساطعة، القلبية والمدهشة، لم أثق بأن الذي يكتب هذه الأشعار، هو ذلك الصبي، الأنيق كالمصوَّر في

اللوحات، مع الذي وقفت ليلاً على جسر سيميونفسكي، ورأيته كيف كان يبصق من بين أسنانه، في النهر الأسود. بعد ست ـ سبع سنوات، رأيت يسنين في برلين، في شقة آلكسي تولستوي. فمن الصبي، أجعد الشعر، الذي يشبه اللعبة، بقي عينان تلمعان، وكأنهما احترقتا بالشمس الساطعة الحارقة. نظراتهما المضطربة، تسقط على وجوه الناس، نظرات متغيّرة، تارة تنظر باختصار وطوراً تكون حائرة، عديمة الثقة. وخيل إلى أنه إنسان غير اجتماعي بسلوكه مع الناس. وكان واضحاً، إنه إنسان يسرف في شرب الخمرة: خدان منتفخان، بياض عينيه أحمر ملتهب. بشرة وجهه، وجلد رقبته رمادية مبيضة. كالذي لا ينام جيداً، ولا يخرج إلى الهواء إلا قليلاً. أما يداه، فمضطربتان وكفاه، كما كفي ضارب الطبل تماماً. وكان قلقاً، مشتتاً، كالذي نسي أمراً هاماً ما، ولم يعد يتذكر ما نسيه. كان بصحبته آيسدورا دونكان*. وكوسيكوف ـ أيضاً شاعر ـ، قال يسنين ـ بهدوء، ببحة في الصوت.

---

* راقصة أميريكية.

وقف كوسيكوف بالقرب من يسنين، بدا لي، أنه وقح جداً، وزائد في الحضرة. كان مسلحاً بقيثارته، الأداة الأثيرة عند الحلاقين، واعتقدت أنه لا يستطيع العزف عليها.

كنت قد رأيت دونكان على خشبة المسرح، منذ عدة أعوام انصرمت، قبل هذا اللقاء، عندما كتبوا عنها، كأعجوبة، فأحد الصحفيين كتب عنها باندهاش: "إن جسدها الرائع الذي لا مثيل له، يحرقنا بلهيب المجد". ولكنني، لا أحب، ولا أفهم الرقص النابع من العقل، ولم يعجبني، كيف أن هذه المرأة حشرت نفسها على المسرح.

أتذكر ـ أنها كانت حزينة، وبدا لي أنها كانت تعاني البرد القاتل، وهي نصف عارية، تركض كي تتدفأ قليلاً ولتهرب من مخالب البرد.

عند تولستوي، رقصت أيضاً، وقد أكلت مسبقاً وشربت فودكا. وبرقصتها جسدت صراع ثقل عمرها، مع ثقل جسدها المنهك من المجد والحب. وهذه الكلمات لا تخفي وراءها ما يمس بكرامة هذه المرأة، بل تتحدث عن الشيخوخة اللعينة. إنها امرأة كهلة، مترهلة، وجهها أحمر، غير جميل، ملفوفة بفستان قرميدي اللون. دارت وتلوت في

الغرفة الضيقة، وهي تضغط بباقة زهر مدعوكة، ذابلة إلى صدرها، وعلى وجهها المترهل السمين تجمدت ابتسامة باهتة.

وقفت هذه المرأة، الذائعة الصيت ـ المبجلة من الآلاف محبي الجمال في أوربا، هؤلاء، الرقيقون الذين يقوّموا فن النحت ـ جنباً إلى جنب مع هذا الصغير كالمراهق ـ **شاعر ريزان[**] الرائع**، وظهرت بشكل مطلق سافر، أنها لا تليق به، ولا تلزمه البتة.

إن هذا ليس مختلقاً، ولستُ متحاملاً عليها. لا، بل، أتحدث عن انطباعي، في ذلك اليوم الثقيل، عندما نظرت إلى هذه المرأة، وفكرت: كيف لها، أن تحس بمغزى تأوهات الشاعر:

حسناً أن تبتسم للقمر

قاضماً القش على الكومة.

وماذا يمكن أن تقول لها أبياته الساخرة الحزينة:

[**] ريزان: مدينة روسية مسقط رأس الشاعر يسنن.

إنني أعتمر القبعة العالية*

لا لتحبني النساء

فالقلب لم يعد قادراً على العيش

هوىً أحمق

بل لأنه من الأسهل عليّ أن أقدم بها للفرس

الشوفان الذهبي

مخففاً من أساي

تحدث يسنين مع دونكان بالإشارات، وبتصادم الأكواع والركب، وعندما كانت ترقص، كان جالساً وراء الطاولة يشرب نبيذاً، ويسترق النظر إليها، من زاوية عينيه. كان ينظر إليها، ويقطب حاجبيه. ويمكن أنه في هذه اللحظة بالذات، نبت هذا البيت الذي يجسد ألمه:

لقد أحببناكِ. لقد أحببناك، وتلوثنا

---

* يسخر الشاعر من الذين يعتمرون القبعات العالية الطويلة المستديرة (وكانت موضة). وهو يسخر أكثر عندما يقول: إن القبعة كهذه تصلح لتقديم الشوفان الأصفر (كالذهب) للفرس.

ويمكن الاعتقاد أيضاً، أنه كان ينظر إلى صديقته، كما ينظر المرء إلى أمر مخيف اعتاده، ولا يخافه، لكن ومع هذا يضغط عليه. مراراً مسح على رأسه كالأصلع، عندما تقرصه ذبابة بجلدة رأسه. بعدئذ سقطت دونكان منهكة، على ركبتيها، ناظرة في وجه الشاعر بفتور، وعلى ثغرها ابتسامة امرأة غير صاحية.

فوضع يسنين يده على كتفيها، وبسرعة أزوّر عنها، ومن جديد ظننت، أليس في هذه اللحظة ومضت في خاطره هذه الكلمات القاسية الرقيقة:

لقد آساروك حتى أبلوك

مالكِ تنظرين إلي هكذا برذاذ عينك الأزرق

أم أنك تريدين لطمةً على سحنتك

آه، يا عزيزتي، إني أبكي

سامحيني، سامحيني

طلبت إليه أن يقرأ شعراً، فوافق برغبة، وقف وبدأ الصراخ التراجيدي كان في البداية، وكأنه ممثل مسرحي:

يا أيتها المجنونة، المسعورة، يا عكر الدم

ماذا أنت؟ الموت؟!

وبسرعة، شعرت أن يسنين يقرأ بشكل يهز الأعماق، وسماعه أصبح صعباً حتى البكاء. ولا أستطيع أن أسمي قراءته، كقراءة ممثل، أو حاذق، ماهر بالقراءة، وكل هذه النعوت، لا تقول شيئاً عن صفات قراءته. صدح صوت الشاعر متقطعاً، وفيه شيء من البحّة، وبصدق ساطع، وبشكل رائع، وبقوة، وبلهجة مختلفة، كرر طلب المحكوم بالأشغال الشاقة:

أريد أن أرى هذا الإنسان!

وبصوت أروع، مشخصاً صوت الرعب:

أين هو؟ أين؟ ليس من المعقول أنه لا يوجد!

لم أصدق، أن هذا الإنسان الصغير يمتلك هذه القوة العظيمة من المشاعر، ومن القوة التعبيرية الهائلة. لقد اصّفر وهو يقرأ، حتى انقلبت أذناه رماديتين، ولوح بيديه ليس على إيقاع الشعر، إذ انطلق إيقاعه الشعري، بحيث لا يمكن الإمساك به. كثقل الكلمات الصخرية، المتقلبة، مختلفة الأثقال. وعموماً: صوته المبحوح المتقطع، إشاراته غير

الواثقة، جسمه المرتعش، عيناه الكئيبتان الملتهبتان ـ كل ذلك ـ كان كما يجب أن تكون عليه الحال، في الوضعية المحيطة آنذاك بالشاعر.

وبشكل رائع مذهل، قرأ سؤال بوغاتشيف، وكررّه ثلاثاً:

أمَسّكِ الجنون؟

وبصوت عال وغاضب، ومن ثم بهدوء وحرارة:

أمَسّكِ الجنون؟

وفي النهاية، بصوت جداً منخفضاً، تأوه يائساً:

أمَسّكِ الجنون؟

من قال لكم، إننا منسحقون؟

وبشكل مدهش، لا يمكن وصفه، سأل:

أصحيح، تسقط تحت ثقل الروح

كما تسقط تحت الحمل الثقيل؟

وبعد برهة، تنفس الصعداء، ودون أمل همس:

يا أيها الأعزاء.. يا أنتم

يا أيها الطيبون...

لقد أثارني حتى تشنجت حنجرتي، وراودتني رغبة بالبكاء. وأتذكر، أني لم استطع أن أقول له شيئاً من قبيل المديح، وحتى هو لم يكن بحاجة لمديحي.

وطلبت إليه أن يقرأ قصيدته (عن الكلبة) التي انتزعوا منها جرائها السبعة، والقوا بالجراء في النهر.

ـ إذا لم تتعب طبعاً

ـ أنا، من الشعر، لا أتعب، وسأل غير واثق:

ـ أتعجبكم قصيدة "عن الكلبة"؟

قلت له، في رأيي، أنه الأول، في الأدب الروسي، الذي استطاع، أن يكتب بحب صادق عن الحيوانات.

ـ أجل، أحب كل الحيوانات. وسألته، إن كان يعرف "جنة الحيوانات". لم يجب عن سؤالي بل مسح رأسه بكلتا يديه، وبدأ يقرأ "أغنية عن الكلب".

وعندما نطق بالسطر الأخير:

تدحرجت عينا الكلبة

نجمتين ذهبيتين على الثلج

ترقرقت الدموع في عينيه أيضاً، بعد هذه الأشعار. فكرت، أن سيرغي يسنين، ليس إنساناً فحسب، لكنه كمخلوق، هو **هبة الطبيعة الاستثنائية للشعر**، ومن أجل التعبير عن الحب الذي لا ينفد ولا ينضب، وعن "كآبة الحقول"، والحب لكل من هو حي في الألم، وأكثر من كل هذه الكائنات، **الإنسان**. وهنا، اتضح بشكل ملموس، عدم أهمية كوسيكوف وقيثارته. ودونكان ورقصها، واتضح عدم أهمية مدينة برلين المضجرة، وعدم أهمية كل ما أحاط بالشاعر الروسي الموهوب.

وفجأة، أصيب بسأم وقرف، وأخذ يلاطف دونكان، كما كان على الأرجح يلاطف فتيات (ريزان) وضرب ظهرها بكفه مداعباً، واقترح علينا الذهاب، قائلاً: إلى أي مكان، فيه ضجيج.

قررنا الذهاب مساءً إلى لوناربارك (حديقة القمر) وفيما كنا نرتدي معاطفنا، قرب الباب، صارت دونكان، تقبل الرجال بلطف. وقالت متأثرة، إنه لقرار جيد، ولا يوجد أفضل من ذلك، عندها ضربها يسنين على ظهرها بفظاظة الغيرة، وصرخ:

ـ لا تتجرأي على تقبيل الغرباء.

واعتقدت، أنه فعل هذا، فقط، من أجل أن يسمي الناس الموجودين بالغرباء..

حديقة لوناربارك الرائعة الجمال، المثيرة أنعشت يسنين، وشرع يركض باسماً من لعبة إلى أخرى، وأخذ يتطلع كيف يتسلى الألمان المحترمون محاولاً أن يضع السيف في فم القناع الكرتوني، وكيف ينخلع القناع من على السلم المهتز، ويقع بثقل على الأرض، ومن ثم يرتفع عائداً إلى مكانه مترنحاً. كانت أنواع اللعب والتسلية البسيطة كثيرة ومتنوعة لا تحصى. أُشعلت النيران في كل مكان، وصدحت الموسيقى التي يمكن تسميتها "موسيقى من أجل السمان".

ـ تعكرنا، من هذه التسليات غير الممتعة، قال يسنين وأضاف: أنا لا أعُيّب (لا أنتقد).

بعدئذ، وبمدة ليست قليلة، قال: إن فعل "عيب" أفضل من فعل "ذم".

واستطرد:

ـ الكلمات القليلة، دائماً أفضل من الكلمات الكثيرة الركيكة. إن العجلة التي نظر بها يسنين إلى الملاهي والتسليات أوحت بالفكرة التالية: إن الإنسان يريد أن يرمي كل شيء من أجل أن ينسى بسرعة. وفجأة، توقف قدام (كشك) وكان دائري الشكل، تصدر عنه أصوات مختلطة، وسأل بشكل سريع غير متوقع:

ـ أتعتقد، أن أشعاري ضرورية؟ وعموماً، الفن، أقصد الشعر، هل هو ضروري؟.

كان السؤال في مكانه تماماً، ـ لوناربارك، مضحكة من غير شللر. ولكنه لم ينتظر جواباً على سؤاله، فقال: فلنذهب نشرب نبيذاً.

على الشرفة الواسعة في (الكازينو)، حيث كان الناس مزدحمين مسرورين، فجأة، اكتأب مرة أخرى، وبدا مشتتاً، ممتعضاً، والنبيذ لم يعجبه.

ـ إنه حامض وله رائحة الريش المحروق. اطلبوا نبيذاً فرنسياً أحمر، ولكنه شرب النبيذ الأحمر أيضاً، من غير رغبة، وكأنه كان مجبراً عليه. وسمر نظره ساهماً حوالي ثلاث دقائق. إذ كانت امرأة تمشي على حبل مشدود في

الهواء، وقد وجهّوا إليها إنارة بنغالية، بدت و كأنها تتطاير كالشهب الصاروخية، ومن ثم تنطفئ وتنعكس في الماء، وكان ذلك جميلاً، لكن يسنين همس:

الجميع يريدون الأمر المرعب. وبالمناسبة، أنا أحب السيرك، وأنت؟

لم يثر يسنين انطباعات إنسان لاهٍ، أو مراءٍ، كلا، بل كان كالذي، وقع في هذا المكان المرح المشكوك بمرحه بشكل قسري، أو حضر "من قبيل المجاملة" أو كالإنسان الذي لا يؤمن، وزار الكنيسة، و **صار ينتظر بفارغ الصبر متى تنتهي الصلاة**...

الفهرس

مقدمة: مكسيم غوركي ـ مالك صقور 5
كيف تعلمت الكتابة 17
عن الواقعية الاشتراكية..... 75
بلزاك 93
عن الفن 101
سيرغي يسينن..... 115

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
16	بالبل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختـارات مـن الشعر والنثـر إصـدار الرابطـة الثقافية النـسائية فـي دمـشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القـــصيدة الدمـــشقية وقـــصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غـادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبـة قمـر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكـان وسـكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)- علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي --- مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية - د. خليفة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	النطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المفالح	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المفالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
48	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	مايلكوفسكي غيمة في سروال	مالك صفور	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليـأس : أمـل يستنسخ أوصافه	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفرلتي مـأخوذاً بـالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـي جعفـر العلاق	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صفور	مالك صفور	2011
55	جـان جـاك روسـو المـصلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	مالك صفور	مالك صفور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صفور	مالك صفور	2012
57	حـي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صفور	2012
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمـد) عـام 1968 مدحـة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صفور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صفور	مالك صفور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صفور	مالك صفور	2012
64	الأعاصـير - الـشاعر الفـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صفور	مالك صفور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومـصارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكلمه		مالك صفور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
75	الفقـه والتـصوف والمـسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمـد رأفـت الحلاق	مالك صفور	2013
76	ّصالح العلي شاعراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
79	الأديـب والمفكـر أبـو حيـان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	وافعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014